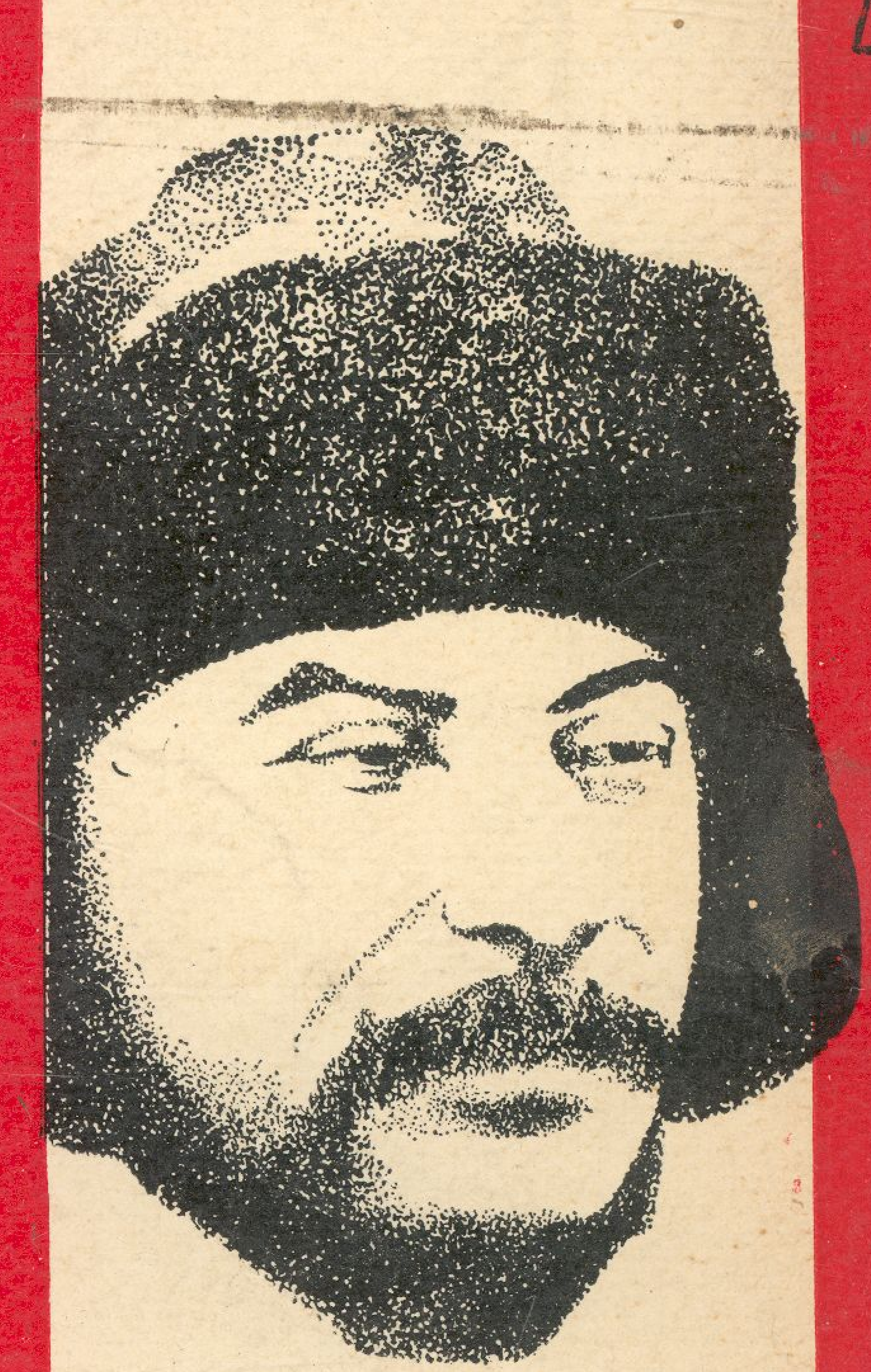




الحياة الخاصة

لجوزيف ستالين

بقلم
جاك فيشمان
وبرنارد هاتون

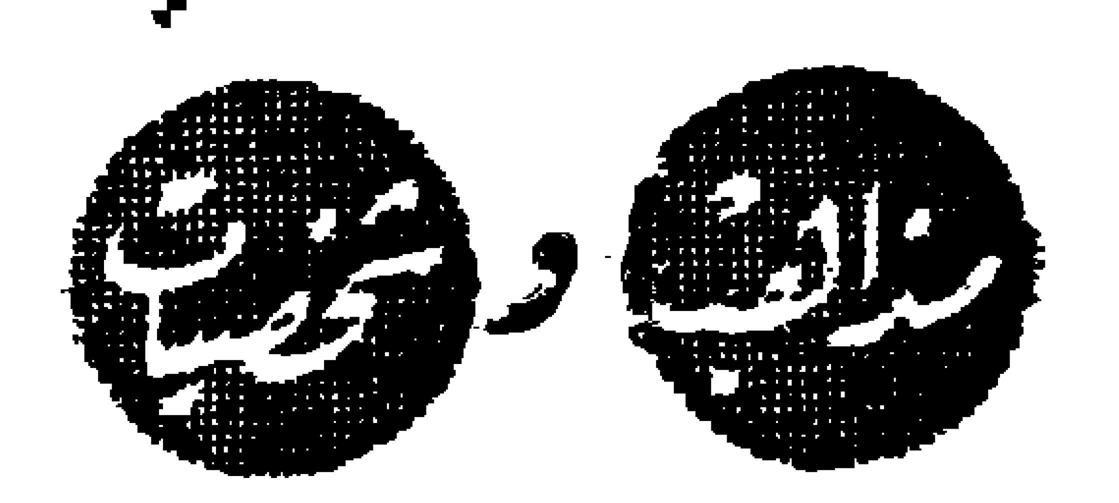
ترجمة
حسين الحوت

مراجعة
حمدى حافظ

The Private Life of Josif Stalin



٤



الحياة الخاصة لجوزيف ستالين

بقلم جان فيشمان
وبرنارد هاتون
ترجمة حسين الحوت
مراجعة حمدى حافظ

تقديم

بقلم

السير روبرت بروس لوكهارت

مدير قسم المخابرات السياسية فى وزارة الخارجية البريطانية

لقد كتبت مجلدات كثيرة عن جوزيف ستالين ، ولكن لم يعرف الا القليل عن طبيعة ذلك الرجل الذى دفع روسيا السوفييتية الى الأمام فى قلب القرن العشرين وخلد اسمه فى سجل التاريخ •

لقد كان مبدؤه فى الحياة أن « الموتى لايكذبون » ، وكان يعيش فى جو من الشكوك وعدم الثقة ولذلك لم يرض بوجود نظراء ومنافسين وأنداد له ، وبلغ به الشك وسوء الظن أن قضى على ياجودا ، وييزهوف ، اللذين كانا يقومان على تنفيذ أوامره الرهيبة ، بالطريقة نفسها التى قضى بها على الآخرين•

وهذا الكتاب ترجمة لجوزيف ستالين من مهده فى القوقاز الى لحده فى قصر الكرملين ، وهو عرض لستالين فى مختلف صوره كرجل عصابات ، وعبقرى ، ولص من لصوص خزائن البنوك ، وطالب لاهوت ، وصاحب ماخور ، وقاتل بالسم وسفاح ، ورجل لايشق له غبار فى الاستراتيجية السياسية •

انه الرجل الذى حكم روسيا بالارهاب طيلة ثلاثين عاما ومع ذلك اصبح فى نظر قومه « البطل القديس » •

أما عن مؤلفى الكتاب فهما خير من يوكل اليهما القيام بهذه المهمة • فبرنارد هاتون تشسيكى على قدر عظيم من الثقافةوقد ولد فى تشيكوسلوفاكيا ويعيش الآن فى بريطانيا •

وسافر ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، الى موسكو ليعمل محررا أجنبيا لصحيفة « فكرنيايا موسكوفا » •

وفي خلال ١٩٣٤ ـ ١٩٣٨ وهي الفترة التى قضاها فى موسكو كان على صداقة قوية مع روزا كاجانوفيتش ، زوجة ستالين الثالثة ، وناديزدا كروبسكايا ، أرملة لينين ، كما أنه كان على علاقات وثيقة مع كثير من زعماء السوفييت من أمثال يينوكيدزا ، ورادك ، وكالينين • والفترة التى قضـــاها فى موسكو هى فترة التطهير الاستالينى المرعبة •

وفى عام ١٩٣٨ عاد « هاتون » الى براج ولما نشـــبت الحرب سافر الى لندن واشتغل مع « جان مازاريك » فى ادارة المخابرات فى وزارة الخارجية التشيكية فى لندن • وفى عام ١٩٤٨ تحولت تشيكوسلوفاكيا الى دولة شيوعية فتخلى عن عمله فى حكومتها •

أما زميله فى تأليف الكتاب « جاك فيشمان » فهو من مواليد لندن وقد ظل نحو عشرين عاما يعمل محررا سياسيا فى صحف لندن الكبرى •

ومن مؤلفاته الشهيرة كتاب « سبعة رجال فى سبانداو» وهى قصة ســـبعة من مجرمى الحرب الالمان الذين نجوا من سجن سبانداو المرعب •

وقد أثار كتابه ضجة ومناقشـــات حادة فى مجلس العموم البريطانى ، حتى لقد استدعاه « سلوين لويد » وزير خارجية بريطانيا لســـؤاله عن صـــحة ماجاء فى كتابه من بيانات •

ولقد اثبتت التحقيقات التى أجريت بشـــأن ماقدمه « فيشمان » عن سجن سبانداو ونزلائه من بيانات على أن هذا المؤلف يتحرى الدقة والأمانة فى كل ما يكتب ، ومن هنا تبدو أهمية اشتراكه فى اخراج مؤلف عن حياة ستالين •

مقدمة المؤلفين

جاك فيشمان :

لقد صاحبت برنارد هاتون فترة طويلة حينما كان يعمل مراسلا دبلوماسيا متخصصا فى الشئون السوفييتية، وكنت أعمل رئيس تحرير حينذاك ، وقد طلب الى أن أقرأ ترجمة لحياة ستالين مدعمة بالأسانيد والوثائق • ومن هنا اتفقنا على أن نعمل معا لاخراج مؤلف عن حياة ستالين وعصره يكون فيه متعة للقارىء العام كما يكون مرجعا للدارسين فى التاريخ السياسى •

وقد ساعد « هاتون » فى هذا المشروع الملمه الواسع بشئون روسيا وعلاقاته الشخصية بكثير من زعماء السوفييت • أما أنا فقد راجعت كل ما كتبه معتمدا على مالدى من خبرة طويلة بالسياسة الدولية وقد يبدو الكثير مما نقدمه فى هذا الكتاب مذهلا ومثيرا للجدل ولكنا ننقله عن أولئك الذين كانوا أوثق الناس صلة بحياة ستالين الخاصة •

برنارد هاتون :

بدأت أجمع معلوماتى عن حيـاة ســـتالين حينما كنت محررا فى صحيفة « فكرنيايا موسكوفا » وقد أتاحت لى صـــلاتى القوية بزعمـاء الكرملين ورحلاتى الكثيرة الخالية من الرقابة فى داخل البلاد فرصة عظيمة لجمع المعلومات الدقيقة • ولقد كنت على صلات وثيقة مع « كارل رادك » وهو من أقرب المقربين الى ستالين ، وكذلك « كالينين » رئيس الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وكنت أتردد على منتدى « روزا كاجانوفيتش » زوجة ستالين الثالثة • أما أرملة « لينين » فقد زودتنى بكثير من المعلومات بل انها كتبت مقدمة لأحد مؤلفاتى • و « آبل ييننو كيدزا » أخلص أصدقاء ستالين كان من أعز أصدقائى • ومما ســـاعدنى فى اخراج هذا المؤلف الـكتب الـكثيرة التى ألفت عن ستالين ولم تتجاوز حدود روسيا •

الفصل
الاول

سوف اسميه جوزيف !

« لقد أسر الى هاتف من السماء ، أن سيكون لى ولد ، يمتد بى الأجل حتى أراه أعظم رجل فى روسيا • وانى لعلى علم بأن هذا الهاتف كان رسالة من الله القدير الذى أراد منى أن أحسن تربيته ليكون مسيحيا مخلصا وخادما يكرس حياته لخدمة الدين » •

بهذه الكلمات الجميلة كانت « يكاترينا دجوجا شفيلى » تقص الرؤيا السعيدة على جاراتها من نساء « جورى » من أعمال جورجيا • واستطردت المرأة قائلة :

لقد مات ولداى الأولان وهما فى سن صغيرة ، ولكن ثالثهما سيعيش ، أجل ستتحقق النبوءة التى أسرت بها السماء الى ، وسأسمى هذا المولود « جوزيف » ، وسوف أناديه : « سوسو » ••• صغيرى « سوسو » •

كانت هذه اذن « يكاترينا دجوجا شفيلى » أم ستالين ، المرأة الوضيعة الرقيقة الحال ، التى كانت تنظف وتخدم بيوت الأثرياء من تجار « جورى » كى تكسب من المال مايقيم الأود ، وكى تساعد زوجها فى الكفاح المرير من أجل لقمة العيش •

لكن « فيزاريون دجوجا شفيلى » ، والد « جوزيف » كان سكيرا يدفعه حب الخمر الى حد ايذاء زوجته لارغامها على اعطائه كل شىء من أجل المزيد من الخمر ، اذ أن دخله المتواضع من حرفته ، كاسكافى ، لم يكن ليشبع نهمه ويروى ظمأه وتعطشه اليها .

أما ابنهما جوزيف فيزاريون دجوجا شفيلى فقد ولد فى الحادى والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨٧٩ وتم تعميده فى كنيسة مدينة جورى • وكان يتميز بالتصاق اصبعى القدم اليسرى الثانى والثالث كما كانت ذراعه اليمنى أطول من ذراعه اليسرى •

جوزيف ـ فيزاريون ، شخصيته مثال لمسقط رأسه :

ليس هناك أدنى شك فى أن تاريخ جورى ، مسقط رأس جوزيف فيزاريون ، قد لعب دورا كبيرا فى تشكيل شخصيته ، وترك بصماته على سجل حياته منذ الصبا •

ولـكن ما تاريخ هذه البلدة ؟

حينما كان جيش الاسكندر الأكبر يشق طريقه الى الهنـــد عبر بلاد الفرس تمكن احد قواد الاسكندر من غزو جورجيا التى استطاع ملوكها فى القرن الحادى عشر أن يجعلوا منها « روما » أخرى تتيـــه على المدن الأخرى بفنونها وحضارتها ، وما لبثت جورجيا أن تعرضت فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، فى عهد جنكيز خان « وتيمور لنك » لحملات غزو متـكررة كان يشنها عليها الطامعون فيها من المغول والأتراك ٠

كان من الطبيعى اذن أن يختفى الطـابع الأصـــيل الذى كان يميز جورجيا خاصة بعد أن ازدادت أعداد المهاجرين اليها من جزيرة « دوجا » وهم من كانوا يضمون طوائف كبيرة من المارونيين واليهـود البرتغـــاليين الذين كانوا يؤدون فرائض ملتهم سرا ، وبمرور الأيام اكتسب سـكان جورجيا اسما جديدا اشتقوه من جزيرة « دجو » وأصبحوا يسمون ـ فيما عدا النبلاء ـ « أبناء دجوجا شفيلى » ، وهـــكذا نجد أن هذا الاسم الجديد يظهر لنا أن الدم اليهودى كان يجرى فى عروق ستالين الذى لم يؤكد هذه الحقيقة أو ينكرها ، الأمر الذى أدى الى اختلاف المؤرخين فى الرأى ، فمنهم من يذهب الى القول بأن جد ستالين كان يهوديا فى حين ينـكر ذلك فريق آخر ويدحضه ، ومع ذلك فهناك حقيقة ثابتة لايختلف عليها اثنان هى أن « فيزاريون ايفانوفيتش دجوجا شفيلى » والد ســـــتالين كان من رعايا الكنيسة الاورثوذكسية فى جورجيا ٠

على أن شعب جورجيا الذى كابد الأهوال من ارهاب القياصرة لم يجد بدا من تكوين « جيش التحرير » ولكن ثورته اليائسة سرعان ما أخمدت ، وتقهقر معظم القوقازيين الى أوكارهم فى الجبال ٠

وقد كان هؤلاء يسمون أنفسهم « بالفوضويين الثـــوريين » ، كما كانوا يشنون بعض الهجمات الخاطفة على القوات الروسية ، ويعتدون على موظفى القيصر ، ويسطون على مخازن الدولة ومكاتب البريد والبنوك ، ومجمل القول كانوا خليطا من أفراد العصابات وقطاع الطرق جنبا الى جنب مع بعض المناضـــلين من أجل الحرية وفى ســـــبيل الخلاص من الارهاب القيصرى ، بقى أن نعلم أن قصص البطولات الخيالية والحقيقيـــة والتى كان يتناقلها ويرويها الكبار والصغار ، قد أغرت الصبى الساخط « جوزيف » بالانضمام الى هؤلاء الثوريين معلنا رغبته فى أن يصبح واحدا منهم ٠

هذا اذن هو تاريخ البلدة التى ولد فيها « جوزيف فيزاريون دجوجا

شفيلى » (ستالين فيما بعد) والتى قضى فيها جزءا من طفولته وصباه ٠

غير أن هناك عاملين هامين كان لهما تأثيرهما البـــالغ على شـخصية الصبى ، وهما التربية الدينية التى اتبعتها معه أمه ثم النهضة القوميـة المتزايدة التى انتشرت بين شعب جورجيا ، مما جعل الصبى يقبل فى نهم بالغ على سماع قصص بطولات الثوار والمتمردين فى جورجيا ٠

وما ان أشرف الصبى على العاشرة من العمر حتى أودعته الأم مدرسة اللاهوت فى جورى ، وفى هذه المدرسة ظهرت عليه بوادر الذكاء والنبوغ بحيث لم يجد صعوبة تذكر فى أن يتقدم كل الطلاب فى فصله ، أما عيناه العسليتان وأنفه المستقيم وشفتاه الرقيقتان فقدكانت تكسب محياه صلابة وذكاء باديين ٠

ستالين يتأثر بكوبا :

لـــكن بوادر الذكاء والنبوغ الذهنى لم تكن هى كل ماميز الصبى جوزيف على أقرانه وأصحابه ، بل ان يقظته الثورية كانت يقظة مبكرة للغاية ، كما أنه كان شديد الاعجاب منذ نعومة أظفـاره بالبطل القوقازى « كوبا » الذى رددت كهوف الجبال ومغاراتها قصص بطولاته ومغـامراته التى هزت أشجان جوزيف وحركت كوامنها ، وما لبث أن جهر لزملائه وأصدقائه بتصميمه على أن ينذر حياته ومستقبله لقضـية كفاح شــعب جورجيا ، وأن يضحى بكل شىء من أجل سعادة وحرية هذا الشعب ٠

جوزيف فى كلية اللاهوت :

استطاع جوزيف ان يجتاز الامتحان النهائى فى مدرســـة جورى الدينية ، وحصل على مرتبة الشرف فضـــلا عن المنحة الدراسية والمكافأة الشهرية ٠ وبعد ذلك بقليل ، وبالتحديد فى نهاية شهر أغسطس من العام نفسه سافر الى « تفليس » حيث التحق بكلية اللاهوت ، ونترك الحديث عن الحياة فى هذه الـكلية لزميل جوزيف وصديقه المسمى « ايرماشفيلى » :

« لقد كانت الحياة فى هذه المدرسة ، حياة كئيبة ورتيبة تلكالرتابة التى تسبب الملل والضيق ، فضلاعن أن الابواب الضخمة والأسوار العالية التى لم نكن نرى الدنيا من ورائها ، جعلتنا نشعر بشعور المسجونين الذين حكم عليهم بقضاء سنوات طويلة بلا ذنب ولا جريرة ، وهذا الشعور وحده كان كفيلا بقتل كل ابتسامة على الشفاة ، بحيث أصبح العبوس وتقطيب

مابين الحاجبين سمة مميزة لوجوهنا ، وليت المأســـاة قد انتهت عند هذا الحد ٠

ان عيون القيصر وجواسيسه كانوا يمنعوننا من قراءة أدب جورجيـا أو مطالعة صحفها ، لأنهم كانوا يخشون أن تشـــعل كلماتها الحماسة فى قلوبنا الثائرة ، كما كانوا يخشون كثيرا انتشـــار الأفـــكار والتعاليم الاشتراكية بيننا ، وبالطريقة نفسها وللغرض كانوا يباعدون بيننا وبين أعمال تولستوى ، ومؤلفات دستوفسكى ، وأدب ترجينيف ، وغيرهم من الـكتاب ٠

وعلى الرغم من كل هذه الرقابة وهذا الحظر تمكن جوزيف من أن يقرأ كل ماوقع بين يديه من « الكوميديا الانسانية لبلزاك» الى « رأس المال » لـكارل ماركس ، الأمر الذى جعل الرهبـــان ينظرون اليه على أنه « الغزال الشارد » أو الصبى الذى انحرف عن الصراط المستقيم .

ومع ذلك فان الصبى ، الذى كانت تضطرم نار الثورة فى قلبه ، لم يكترث للعقوبة التى فرضتها عليه ادارة الكلية ولم يكترث أيضا للحـكم الذى صدر بمد مدة حبسه فى زنزانة ، بل انه كون فى العام نفسه أول جماعة ماركسية ونصب نفسه زعيما لها ، مما جعل ادارة الكلية تصمم على طرد هذا التلميذ الذى لم يكن يصلح لأن يكون قسيسا فى المستقبل ٠

الفصل الثـانى

الثورة ٠٠٠ عقيدتى

حين خيب جوزيف ظن أمه فى أن يصبح رجـــلا عظيمـــا من رجال الكنيسة ، حاول أصدقاؤه وأقرانه أن يجدوا له فرصة لـكسب العيش وتمكنوا أخيرا من الحاقه بوظيفة فى مرصد « تفليس » ·

لكن ذلك صادف قيام الحركة المعادية للقيصر التى بدأت فى جورجيا، وعلى أثر ذلك أعلن « كوبا » أى جوزيف ، انضمامه الى الثوار ، كما عبرعن شعوره بضرورة تنظيم عمل مباشر ، ولكن هذه الدعوة لم تصادف هوى فى نفوس هؤلاء المتطرفين الذين انقسموا على أنفســـهم بين مؤيدين للاكتفاء بالمطالبة بالحقوق الاقتصادية وبين المؤيدين لفكرة تنظيم الاضرابات وغير ذلك من أساليب العمل المباشر ·

أما جوزيف « ستالين » فقد أصبح فى هذه الفترة مريدا مخلصا من مريدى « لينين » واتباعه ، ولم يكن مهتما فقط بمشاكل الأجور ومصـــالح الطبقة العمالية بل كان كذلك مطالبا بالثورة الاجتماعية الـكبرى ·

لقد أظهر جوزيف تأييده الـكامل لسياسة « لينين » التى قبلهـــا بلا أدنى تردد ، كما أنه آثر أن يحتفظ بوظيفته فى المرصد لا بسبب حبـه لهذه الوظيفة ولكن لأنه كان فى حاجة الى مصدر رزق يضمن له لقمة العيش ، كما كان محتاجا الى مركز اجتماعي يمكنه من الاضطلاع بدور فعال على مسرح الحركة الثورية ·

لـكن « لينين » فى هذه الفترة كان على وشك الرحيل الى منفاه فى سيبريا بعد أن عهد الى أحب تلاميذه وأقربهم اليـــه باســـتكمال الدعوة اللينينية وحمل مشعلها ، ولم يكن هذا التلميذ المقرب سوى « فيـــكتور كورناتوفسكى » الذى كان يؤمن بأن الثورة السياسية هى العلاج الناجع والسلاح الفعال لمواجهة التحديات القيصرية والاطاحة بالاستبداد والطغيان ولكنه لم يعلق أملا كبيرا على الكفاح الاقتصادى ، كما كان يعتبر الاضرابات وحدها عاجزة عن تحقيق نتائج مثمرة وباقية ، أما رأيه بالنسبة للحـــكم القيصرى فقـــد كان يرى أنه من الضرورى أن يطاح بهذا الحـــكم وتحطيم النظام القيصرى من أساسه «وليس أقدر على هذه المهمة من جماهير العمال فى المدن » كذلك أوضح « كورناتوفسكى » ان لاسبيل الى انتصار الثورة الا اذا نظمت جماعة خاصة للثوريين المحترفين ، لأن الثورة لاتحتاج الى من

يشد أزرها من المتحمسين أو المؤمنين بالثورة ايمانا عاطفيا بقدر ماهي محتاجة الى من يدفع عجلتها ويشد أزرها من الفنيين والخبراء والمتخصصين الذين سيتولون توجيه الحركة الثورية ، وهؤلاء وان كانوا ينتمون الى الثورة الا أنها يجب أن تطيعهم وتهتدى بتوجيهاتهم ٠

وفى الواقع أن جوزيف ستالين قد وجد فى لينين ضالته المنشودة والمثل الأعلى الذى يجب أن يحتذى ، وهذا ما دفعه الى أن يصرح لـ (كورناتوفسكى) فى احد اللقاءات التى جمعتهما معا « بأن لينين لن يتكرر مرتين ، انه طراز فريد ، بل انه نسر الجبل الذى كشف للحزب الطرق المجهولة للحركة الثورية الروسية » ٠

جوزيف ستالين يصبح ثوريا محترفا :

كان من الطبيعى اذن أن يتخذ جوزيف قراره بأن ينخرط فى سلك الثوريين المحترفين كما كانت له آراؤه بصدد ادارة الجهاز الثورى ، انه جوزيف ستالين ، أو « كوبا » الجديد ، كان يرى أن تكاليف الثورة ونفقاتها يجب أن تؤخذ عنوة من الطبقة المعادية ٠

على أن أول فرصة مواتية للعمل الثورى الحقيقى قد أتت فى أثناء القبض على « كورناتوفسكى » ٠ ذلك ان البوليس كان يبحث عن «كوبا» ، أو ستالين ، كى يضعه تحت الحجز التحفظى بسبب اتهامه بتنظيم اضراب فى ورش السكك الحديدية « بتفليس » بالاشتراك مع « ميخائيل ايفانوفيتش كالينين » ولكن « كوبا » استطاع أن يقفز من احدى القمرات وظل مختبئا حتى يئس رجال البوليس من العثور عليه فانصرفوا ساخطين ٠

غير أن « تفليس » لم تكن بالمدينة الضخمة التى يمكن « لكوبا » فيها أن يندس وسط الزحام ، لذلك كان من الصعب عليه أن يجد مخبأ أمينا يستطيع أن يباشر فيه مناشطه السرية ، ومن هنا فانه ذهب الى صديقه الصحفى «كامنييف» الذى أوصى به خيرا وتوسط له كى يقيم فى مسكن «كاترين سفاندز» وكانت ثورية محترفة فرحبت بهذا الحل ترحيبا حارا ٠

ومن هذا الوكر استطاع « كوبا » أن يملأ الفراغ الذى تركه « كورناتوفسكى » الذى أودع السجن ٠ كما أنه استطاع ان ينظم مظاهرة الاحتفال بذكرى « مايو » التى بلغت ذروتها حينما شقت الجماهير الحاشدة ببنادقها ومدافعها الخفيفة ، طريقها الى عاصمة جورجيا بقيادة « كوبا »

الثائر الشاب ، وما أن التقت هذه التجمعات بجماعة المتظاهرين فى « جورى » مع بعض الخيالة والفرسان حتى التهبت المشاعر الحماسية وارتفعت أصوات الجماهير المتمردة تشق عنان السماء وتطغى على أصوات الطلقات النارية التى أطلقها رجال البوليس لارهاب المتظاهرين الذين استبدت بهم الحماسة ، وفى هذا اليوم الخالد سجل التاريخ أول لقاء بين حشود القوقاز المتذمرة تحت قيادة رجل جورجيا اللينينى مرددين نشيد الثورة الروسية ٠

وفى هذا اليوم أيضا ، أصبح « كوبا » طريد البوليس الذى استبد به الغيظ فأصر على وضع حد لتحديات هذا الثائر الذى ترك « تفليس » لتوه قاصدا « جورى » ولكنه بالطبع لم يستطع أن يذهب الى أمه لعلمه أن منزلها سيكون أول مكان يبحث فيه البوليس عنه ، فاضطر الى أن يلجأ الى كوخ ناء يمتلكه أحد أقارب اصدقائه ، وفى أثناء اقامته هناك تعرف على « ليونيد بوريزوفتش » الذى أرسله لينين الى القوقازيين ، ولقد أخبره « بوريزوفيتش كراسين » أثناء الحديث الذى جرى بينهما :

« ان لينين يعلم أنك أنت الذى نظمت مظاهرات تفليس ، وأنت لامحالة ملاق لينين يوما ، أما اليوم فما عليك الا أن تبقى بين القوقازيين لأنك أكثر فائدة للحركة هنا منك فى خارج البلاد ٠ كما أن عليك أن تتعاون مع لجنة الحزب فى تفليس حيث تقوم بمناشطك السرية ٠ ولا تخف من شىء لأن البوليس سوف ينساك سريعا ، ومع ذلك فليس من المستحسن أن تمتد بك الاقامة فى تفليس اذ يجب أن تشد عصا الترحال الى « باطوم» وهناك سيكون فى انتظارك مخطط حافل بالأعمال والمهام » ٠

على أنه وان كان قد قدر « لكوبا » ان يقيم لمدة معينة فى الكوخ الصغير الا أنه قد أكره على الرحيل فجأة ، ولكن البوليس لم يكن له شأن بهذا القرار هذه المرة ٠

ذلك أن أحد القرويين قد اكتشف أن « كوبا » قد اختار زوجة هذا القروى عشيقة ، وليته قد اكتفى بذلك بل اغتصب أخته ولم تكن قد بلغت من العمر عامها الرابع عشر ، لذلك صمم القروى على الانتقام منه بارشاد البوليس الى المخبأ الذى احتمى به ، ولكنه عاد فعدل عن رأيه مكتفيا بتأديبه بالعصا ٠

أما لجنة الحزب فى « تفليس » فانها سجلت اسم « كوبا » فى قائمة الأعضاء لعدم علمها بالحادث ، وفجأة تألق نجم « كوبا » وأصبح علما من

اعلام الثوريين المحترفين . ولكنه عاد فوجد نفسه فى مأزق مرة أخرى .

ذلك أن « كوبا » قد أخل بقواعد الحزب وهاجم فى احدى المناظرات مؤسس الاشتراكية الديمقراطية ، ولذلك طالب الأخير بطرده من الحزب ولكنه قال فى معرض الدفاع عن نفسه :

« ان الصداقة شىء ، ومصلحة الحزب شىء آخر ، وانى لعلى استعداد تام لأن أقدم اعتذارا شخصيا ، وان كنت لا أعد بمهادنته اذا تراءت لى أية تصرفات من جانبه تكون منافية للحزب ومجافية لروحه وأهدافه ، وان دل هذا على شىء فانما يدل على ايمانى بأن الرفض المطلق للمهادنة أو المراءاة هو السلاح الفعال فى معركة النضال الثورى . ولعل من الناس من يرمينى بالصلف أو الخشونة ، ولكن شيئا من هذا القبيل لن يهمنى لأننى أعلنها هنا كلمة صريحة : اننى لن أدبر جهدا فى محاربة كل الذين يهددون بتحطيم الحزب ونسف قاعدته » .

جوزيف ستالين يصبح من زعماء البلشفيك :

لما اشرف (كوبا) على عامه الثانى بعد العشرين كان قد أصبح نجما لامعا من نجوم الحزب ، كما أنه كان قد ألقى عصا الترحال فى « باطوم » التى وقع عليها اختياره كى تكون قلعة يشن منها حملاته ومناشطه ، وفى هذه الفترة كان « كوبا » قد ادرك أن لامناص من تأسيس صحيفة سرية كأداة لتكوين حزب فعال قوى ، كذلك أدرك « كوبا » أن لابد من توزيع المنشورات باللغات الارمنية والتركية والروسية ، ولكن خزانة الحزب كانت خاوية ، ومع ذلك استطاع الحزب أن يؤسس صحيفته السرية .

وقد استطاع « كوبا » أن يجعل من « باطوم » مركز انطلاق للحركة الثورية فقد كان منظما الاضرابات تارة ، ومثيرا القلاقل والاضطرابات تارة أخرى ، وموجها لحملات دعائية ضد الحكم القيصرى تارة ثالثة ، حتى كان الاضراب العام ، الذى انتهى بتوجيه عدد من العمال الذين تجمهروا حول قصر الحاكم هاتفين بسقوط النظام القيصرى ، ومعلنين اصرارهم على اجابة مطالبهم وقبول شروطهم ، وحينئذ استبد الغيظ برجال البوليس الذين أسرعوا بمحاصرة المنزل الذى كان يلتقى فيه أعضاء الحزب فى أثناء اجتماعاتهم السرية ، وضيق رجال البوليس الحلقة على الحاضرين حتى أصبح الهرب محالا .

أما « كوبا » فقد اضطر ، تضليلا للبوليس ، ان ينتحل اسما من

الأسماء المستعارة التى أطلقها على نفسه ، ولما سـئل عن مسكنه أجاب قائلا :

« ليس لى مسكن ثابت ، وانما أنام حيثما يتفق وفى أى مكان »

لـكن ضابط الحملة البوليسية استطرد متسائلا :

« اننى أعـرف من أنت ... انك جوزيف فيزاريونوفتش دجوجا شفيلى ، الملقب « بكوبا » ، والذى يعمل سكرتيرا للجنة الحزب » .

وأخيرا انتهى التحقيق بايداعه سجن « باطوم » تمهيـدا لترحيله الى المنفى فى سيبريا حيث أمضى مدة العقوبة المقررة وقدرها ثلاث سنوات .

لينين أمضى مدة النفى :

أما « لينين » الذى كان فى ذلك الوقت مختبئا فى مـكان ما بلندن متنكرا تحت اسم « دكتور ريشتر » فقد كان مؤمنا بأن الثورة فى روسيا وشيكة الوقوع ، كما كان يعمل على اثارة جماهير الفلاحين ضد أسـيادهم ملاك الأراضى ومن عليها ، وفى الوقت نفسه كان راغبا فى تحطيم الأسس التى يرتكز عليها النظام القيصرى ، واثارة الفتن وبث الفوضـوية وفى العمل على افساد جهاز ادارة الدولة وشل حركة الاقتصادالوطنى ، واشعال نار الصدام المسلح ، تمهيدا لاستئصال شأفة البيروقراطية وتقويض أركان الرأسمالية بعد ذلك .

ولقد بذل «لينين» محاولات مضنية لكى يزداد عدد الذين سيحضرون مؤتمر الحزب المزمع انعقاده فى مراكز الجمعيات التعاونية فى بروكسل ، ومع أن « كوبا » كان سجينا فى ذلك الوقت الا أنه انتخب عضوا فى لجنة الاتحاد القوقازى .

على أن البوليس البلجيكى لم يوافق على عقد مثل هـذا الاجتمـاع فى بروكسل ، ولذلك اضطرت الوفود الى الذهاب الى لنـدن حيث اجتمع أعضاء المؤتمر ليضعوا الخطط العامة لنشـاط الثوريين الروس وفى هذا المؤتمر أوضح « لينين » للمجتمعين أن اللجنة المركزية هى القبضة الحديدية التى تتولى تأديب أى عضو فى الحزب يصدر عنه مايخل بالنظـام ، كذلك استعمل « لينين » فى هذا الاجتماع لأول مرة لفظ « البلشفية » حين صاح فى الحاضرين : « نحن البلشفيك » فأضاف بذلك مصطلحا سياسيا جديدا كل الجدة الى معجم المصطلحات السياسية .

ولما فض كوبا الرسالة التى وصلت اليه من « لينين » خارج أسـوار السجن صاح متعجبا « لسوف ترون أن منظمتنا ستؤيد البلشفيك تأييدا مطلقا » ! وبعد ذلك بقليل كثرت الشائعات واشتدت عن سوء العـلاقات بين الامبراطورية القيصرية واليابان ، وبالتـالى احتمال وقوع الحرب بين البلدين ، ولقد نزلت هذه الانباء بردا وسلاما على نفس كوبا (سـتالين) الذى كان يرى أن مثل هذا الموقف من شأنه أن يسهل على الثوريين ممارسة نشاطهم ، وبالتالى أحس « كوبا » بأنه يجب أن يخرج من المنفى بأى ثمن ، وتحققت هذه الأمنية بفضل أحد أنصار الحزب الذى حصل له على « تصريح خروج » باسم « دافيد بتريرازى » تاجر السجاد الجورجيانى الذى كان قد توفى منذ عامين ، وعن طريق هـذه الخدعة تمكن « كوبا » من الهرب قبل أعياد « الكريسماس » بقليل ، واستطاع بعد رحلة شاقة مليئة بالمغامرات والمفاجآت أن يصل الى « تفليس » .

جوزيف عدو الدين « رقم واحد » . يتزوج فى بيت من بيوت الله :

أدت الهزائم الأولى التى لحقت بروسيا على يد اليابان ، الى تزايد عدد المتعاطفين مع الحركة الثورية كما أن الطبقة المستنيرة صبت جام غضبها على أنصار الحرب القيصريين مما أدى الى انتشار حركة التحرر .

أما « كوبا » الذى أصبح اسمه دافيد بتريرازى « فقد اتجه بكل قواه الى حث اللجنة القوقازية على مساندة البلشفيك وتأييـدهم ، وفى الوقت نفسه أصبح شديد الوله ب « كيك شفانديز » التى ملك حبها قلبه وانتهى هذا الحب نهاية سعيدة على يد راعى كنيسة جورى الذى سـجل زواج « كاترين شفانديز » من « جوزيف دجوجا شفيلى » قطب الثـوريين وعدو الدين « رقم واحد » الذى شاء له القدر أن يتزوج فى كنيسة !

الفصل
الثالث

ستالين يصبح أبا !

كان « جوزيف » شديد الحرص على ألا تحول أسوار السـجن دون تمتعه بالحياة الهادئة الهانئة مع زوجته الجديدة ، ولذلك آثر أن يغير اسمه مرة أخرى الى « جوزيف ايفـانوفتش » وتحت هذا الاسم الجديد عاش « جوزيف » مع زوجته فى « باكو » حيث بنى عش الزوجية الهادىء وحيث تم انتخابه سكرتيرا للجنة الاضرابات ·

وفى هذه المدينة كان « جوزيف » شعلة من النشاط ، يكتب ويطبع المقالات التى هاجم فيها التحرريين المزيفين الذين اعتبرهم أشد خطرا على الثورة من البوليس القيصرى ، وكذلك اهتم « جوزيف » بنشر المطبوعات التى أيد فيها نظريات « لينين » داعيا الى الثورة الشاملة المسلحة للعمـال والفلاحين ·

وكان من المقرر أن يحضر « جوزيف » المؤتمر الثـالث للحزب فى لندن ، ولكن مرض زوجته من ناحية ، ومولد ابنه من ناحية أخرى حالا دون ذلك ، ولكنه لم يشأ أن يترك المناسبة تمر من غير أن يحتفى بها ، فقاد جمهرة غفيرة من مشايعيه فى « باكو » ، وسرعان ما أسقطهم رجال البوليس برصاص بنادقهم ، وكان العشرات منهم يخرون صرعى وتتكدس جثثهم فى شوارع باكو وتفليس ·

أما « لينين » الذى كان يعيش حينئذ آمنا فى جنيف ، فلم يكن يدرى دراية تامة بكل مافعله جوزيف ، ولذلك كتب اليه يطلب منه أن يضرم نار الثورة المسلحة طفرة واحدة ، ودعا كذلك الى عقد المؤتمر البلشفيكى لجميع الروس ، وهو المؤتمر الذى انعقد بالفعل فى « تامر فورز » بفنلندة ، والذى حضره « جوزيف » كمندوب عن البلاشفة القوقازيين ، وفى هذا المؤتمر تم أول لقاء بين جوزيف ولينين الذى أعجب كثيرا بحيوية جـوزيف واعتبره مخططا لاستراتيجية الحركة الثورية ، بل لقد أسماه « ستالين » أى الرجل الفولاذى ، ولكن « كوبا » لم يكن ليرضى بهذا الاسم الجديد ، لذلك قرر أن يحتفظ باسمه القديم وهو « جوزيف ايفانوفتش » ·

وبعد أن أرفض المؤتمر عاد « جوزيف » ليضع الخطة للثورة التى دعا اليها بين صفوف العمال فى منطقة البترول بباكو ، وفى هذه المرة استطاعت جماهير العمال الغفيرة أن تجرد البوليس من سلاحه وأن تسيطر على خطوط

السكك الحديدية ، كما تولت بنفسها بيع التذاكر والمحافظة على النظـام ، غير أن البـــوليس القوقازى تمكن اخـــيرا • على الرغم من عدم تعرفه على الشخص الذى أثار كل هذه الفوضى ــ من احباط الخطة واجبار الثوريين على الفرار •

حدث ذلك ولينين ــ كعادته دائما ــ بعيد عن مسرح الحوادث ، مصمم على البقاء بالخارج خوفا من رجال البوليس وبطشهم به ، أما « جوزيف » الذى استطاع فى ذلك الوقت الحصول على تأشيرة خروج تحت اسم « بودا بوزوشفيلى » فقد سافر لتوه قاصدا « كيوكالا » حيث يقيم لينين ، ثم عاد بعد هذه الزيارة الى جورجيا •

وفاة كيكا ، زوجة ستالين :

فى أثناء غيبة « ستالين » كانت وطأة المرض قد اشتدت على « كيكا » التى كانت تشكو من ذات الرئة ، والتى لم تكن تحظى برعاية « ستالين » واهتمامه ، مع انه كان دائما وفى كل المناسبات يتحدث عن جمالهـا وحبه الكبير لها •

وفى احدى الليالى ، كان جوزيف محدقا فى السماء مأخوذا من آهات زوجته من ورائه ، مشغول الفكر بالخطاب الذى يريد ارساله الى لينين فأخذ يعيد ما كتبت يداه بصوت ثابت رصين قائلا :

« قد تسألنى عن سر اخفاقنا ، وأسباب فشـلنا ، ومع ذلك فلست بحاجة الى ذكر أسباب الهزيمة أو تبريرها •

لقد كان عمالنا بلا سلاح ، ســـوى حفنة قليلة ، ولذلك فينبغى أن نسلح قواتنا وأن نمدهم بالمسدسات والبنادق والقنابل ومواد النسف•• »

حدث كل ذلك «وكيكا» زوجة جوزيف تعانى من سكرة الموت ، وان هى الا دقائق معدودة حتى كانت الروح قد فارقت الجسد ، ومضت ساعات قصيرة كانت فى نظر ستالين دهرا كاملا ، وقف بعـــدها محدقا فى القبر الجميل الذى أعد لاستقبال زوجته قائلا :

« لقد كانت الانسانة الوحيدة التى ألانت قلبى المتحجر ، لقد ماتت كيكا ، وبموتها ماتت فى قلبى كل مشاعر العطف على الانسانية » وبعد أن عقد يديه فوق قلبه استطرد قائلا : « لقد تركت كيكا فى قلبى فراغا لايقوى اللسان على وصفه ، ولا يقدر أحد من بعدها أن يملأه •• »

وبعد أن فرغ جوزيف من القاء كلمة الرثاء التى أدلى بهـا أمام قبر زوجته ، عاد أدراجه الى منزله ناسيا كل همه وحزنه وناسيا أيضا « ياشا» ابنه من زوجته الراحلة « التى كانت تحب ابنهـا بكل عواطفهـا وبكل جوارحها ، ولكن الأب لم يكن ليتفانى فى رعاية ابنه ، حتى انه لو أراد ذلك لما وجد من الوقت ما يتسع لهذه الرعاية ، لأنه قد كرس كل حياته ونذر كل قطرة من دمه للحزب ٠٠٠ والحزب بلا شريك ٠

ستالين وتروتسكى ٠٠ معا لأول مرة :

بعد شهر واحد من الحادث المحزن وصـل « جوزيف » على رأس وفد القوقازيين الى لندن كى يحضر المؤتمر الخامس للحزب ، وفى هـذا المؤتمر تم أول لقاء بين جوزيف و « ليف دافيد وفتش برونستين » الذى عرف فيما بعد باسم « تروتسكى » وفى هذا المؤتمر أيضا أدرك البلشفيك القوقازيون الروس انه على الرغم من تزايد نشاط الحزب ، فان الحاجة الى المال اللازم للانفاق على الخلايا الثورية قد وصلت الى الحد الذى يهـدد الحزب بالافلاس الشامل ، وعلى ذلك فقد كان لابد من البحث عن مورد ٠٠ أى مورد للمال٠

وما ان تم عرض المشكلة على الحـاضرين حتى نهض « كراسين » اليد اليمنى للينين ٠ مقترحا السطو على خزانة الدولة فى « تفليس » ولم يكن هناك رجل أقدر على هذه المهمـة من جوزيف ، لا لأنه يعرف كل شبر فى جورجيا فحسب بل لأنه كان يمتلك كذلك الشجاعة والدهاء والعصابة المنظمة ٠

وارفض المؤتمر وعاد جوزيف ومعه ٥٠٠٠ر٥ روبل ، كى يضع الخطة، بعد أن انتحل اسما آخر هو «دافيد شيزيكوف» من مواليد «فلاديفوستوك» وبمجرد وصوله شرع فى اعداد العدة على ضوء المعلومات التى وصلته بأن الخزانة العامة تنقل عادة بعض أموالها على دفعات تبلغ الواحدة منها مليونا أو مليونين من الروبلات ٠

وفى صبيحة السادس والعشرين من يونيو ، وفى ساعة « الصفر » هوجمت الخزانة العامة واختلطت أنات الحرس وآهاتهم بدوى الطلقـات النارية وقصف القنابل التى قتلت وجرحت من حرس الخزانة عددا كبيرا ، ونجح مدبرو الحادث فى سرقة ٣٤١٠٠٠ر روبل ٠ أما جوزيف الذى كان يعرف كل حجرة فى مرصد « تفليس » فقد وقع اختياره على المرصد لاخفاء المسروقات لفترة معلومة ٠

لكن « كوبا » فوجىء بأن المال المسروق كان عبارة عن أوراق نقد من فئة ٥٠٠ روبل ، وهى عملة لم يكن من الممكن اظهارها فى وقت كان اظهار الفلاح فيه لروبل واحد يعد حدثا يدعو الى الدهشة والشك ، فضلا عن أن الأوراق المالية « كانت مسلسلة ، ولذلك اتخذ « جوزيف » قراره باخفاء المال فى قبة المرصد ٠ وبعد أن هدأت الضجة التى أثارها البوليس فى البحث عن مرتكبى الحادث ، نظم « جوزيف » جماعة لتهريب السندات والأسهم خارج القطر ، وسافر أحد شركاء « ستالين » الى باريس وهو « مكسيم مكسيمو فتش » منتحلا اسم « ليتفينوف » كى يستبدل أوراق النقد المسروقة ، ولكنه كان غير موفق فقبض عليه وأودع السجن ، وأكدت تقارير البوليس الفرنسى اشتراكه فى حادث السطو على خزانة « تفليس » العامة ٠

البلشفيك فى موقف حرج :

بذلك أصبح البلشفيك فى موقف بلغ غاية الحرج ، فهم قد خسروا مبلغا كان كفيلا بتمويل الخلايا الثورية المهددة بالافلاس ، كما ان تصرفاتهم ونواياهم أضحت موضع شك كبير فى روسيا وفى الخارج على حد سواء ، بل لقد اعتبروا علانية أنهم عصابات من المراهقين والأفاقين الذين يسطون على البنوك ويستبيحون أموال الحكومة ، للكسب الشخصى تحت ستار المثل العليا السياسية ، وكان هذا وحده كفيلا بأن يفقدوا هذا التأييد الذىطالما تمتعوا به ، والعطف الذى كان يشملهم ٠

ومع أن البوليس القيصرى تظاهر بالكف عن البحث عن مرتكبى الحادث الا أن القيصر كون جيشا من المخبرين السريين الذين انتشروا فى أرجاء القطر يبحثون ليل نهار ، وخصوصا بعد أن تلقوا معلومات مفيدة من البوليس الفرنسى ، وسرعان ما أدرك هؤلاء أن البلشفيك هم الذين دبروا حادث السرقة وحامت الشبهات حول «دافيد شيزيكوف» ولكنهم لم يعرفوا أن هذا الشخص لم يكن الا « كوبا » ، وبازاء هذه التطورات لم يجد «كوبا» بدا من تغيير اسمه الى « ارجانيس توتوميانتس » وتغيير محل اقامته الى عنوان جديد ، وكان هذا التصرف بمثابة الدليل على أن « توتوميانتس » ليس الا «جوزيف دجوجا شفيلى» زعيم البلشفيك القوقازيين ، الأمر الذى انتهى بوقوعه فى قبضة رجال البوليس ، الذين حولوا أوراقه الى وزارة الداخلية وهذه أصدرت حكمها عليه « بالنفى » لمدة سنتين فىسيبريا حيث كان « جوزيف » يعقد مع بقية المسجونين السياسيين اجتماعات سرية يتناقشون فيها ويتدارسون النظريات والتكتيك والمبادىء الثورية ٠

لكن «جوزيف» تمكن من الهرب مرة أخرى بعد أن حصل على «جواز» باسم « موراديانت » وسافر الى موسكو حيث أقام يومين ، ومنهـا عاد الى « باكو » حيث صدم بالمنظمة البلشفية وقد أوشـكت على الزوال بعد أن كانت من أقوى المنظمات وأوسعها ٠

جوزيف ستالين : جامع التبرعات ، ومعبىء جيش العاهرات :

لما وجد « جوزيف » أن المنظمة أصبحت فى شر حال بسبب القبض على الزعماء وبسبب الافلاس ، فكر فى أن يزور كبار التجـار وأصحاب البنوك طالبا منهم التبرع بما يجودون به لصـالح الحزب ، أما من رفض التبرع أو أبلغ بوليس القيصر فقد كان يعرض متجره وأمواله وأسرته للخطر ، ومع ذلك فلم تكن هذه هى الخطة الوحيدة التى وضـعها جوزيف لجمع المال ٠

فلقد استطاع « جوزيف » عن طريق الرفيق « لاجوس كوريسكو » بائع المخدرات والأسلحة ، وعن طريق العاهرات بائعات الهوى والجسد ، أن يجمع الكثير من المال ، بغض النظر عن مصدره ، وأيا كانت الوسـيلة لجمعه وتحصيله ٠

على أن معظم البلشفيك كانوا غير راضين عن جوزيف ، ولا عن الطرق الرخيصـة التى اتبعها ، فضلا على أن « لينين » لما سـمع بذلك كتب اليه يعنفه ويلومه قائلا :

« اننى لا أوافقك على تلطيخ سمعة الحزب ، وتلويث اسـمه بالدعارة والفسق الذى أصبح تجارة رائجة ، وان كنت لا أنكر أننا فى أشد الحاجة الى أموال لتغذية الخلايا الثورية المجاهدة ، الا أننى أعتقـد أن جمع المال يجب أن يتم بالطريقة التى تنزهنا ، وترتفع على مستوى الشبهات واتهامنا بتسخير البغايا كوسيلة للحصول على مال من أجل العمل الثورى ٠

بل انه سيكون من المخجل للحزب ، اذا طالعتنا صحيفة القيصر يوما، باعلان مكتوب بالخط الكبير « زعيم البلاشفة القوقازيين ، يعمل قوادا » ٠

وليس هناك أدنى شك فى أننا سنحطم قضيتنا العادلة بأيدينـا اذا سمحنا لأنفسنا بأن نتهم باستغلال أى انسان ، حتى ولو كان هذا الانسان مجرد عاهرة ٠

« لذلك فانى اقترح عليك أن تجعل نفسك بمنأى عن هـذه الأماكن

المشبوهة ، وأن تجمع المال عن طريق « كوريسكو » وبذلك تكون بمنجاة من شبهة الاتصال بالفاجرات وفى الوقت نفســـــه يتعين عليك أن تصرح للجميع بأن هذه الاموال قد تم جمعها من بعض العاطفين على الحركة الذين لم يريدوا أن يذكروا أسماءهم » .

أما « جوزيف » فانه أوضح فى معرض الرد على «لينين» ، أنه لايرى أى خطأ فى استغلال محترفات البغاء وأراد جوزيف أن يبرر فعلته فاستطرد قائلا :

« اننى أساعد هؤلاء الفتيات على التمتع بالحياة تحت ظروف أفضـــل بكثير من الظروف التى كن يعشن تحتها من قبل ، لأنهن يشفقن على أنفسهن من عرض أجسادهن فى الشوارع خوفا من البــوليس ، أما اليــــوم فانهن يتمتعن بالحياة الهادئة فى منزل اكتملت فيه أسباب الراحة والسعادة » .

ومع ذلك فان جوزيف لم يختلف مع لينين فى قوله ان افتضاح هذه الحيلة سوف يلحق بالحزب ضررا كبيرا ، ولذلك فانه وعد بتنظيم الأمور .

الحياة تدب فى أوصال الحزب ، « وكوبا » يعود الى السجن مرة أخرى :

بهذه الطرق أمكن للحزب أن يحصل على الأموال التى لولاها لما عاد الى الظهور ، وسرعان ما تأسست دور الصحف التابعة له ، كما أن دوريات الحزب ومنشوراته أغرقت كل شبر من أرض القطر ، الأمر الذى جعل لينين الذى يعيش فى لندن آمنا مطمئنا لايخفى سروره ورضـــاءه عن النتيجـــة ولكن هذا السرور لم يكن طويل الأجل . اذ أن ضابط بوليس أرسل الى « باكو » وألقى القبض على « كوبا » مرة أخرى .

وحينما سمع « جوزيف » هذا الضابط وهو يطالب « بتوقيع أقصى عقوبة ممكنة » ارتسمت على محياه ابتسامة رضية ، ولقد كان يعلم أن هذه العقوبة القصوى لن تتعدى بحال من الأحوال تحديد اقامته فى سيبريا لمدة خمس سنوات ، وهو لن يعدم حيلة يهرب بها من المنفى الذى ألفه واعتاد عليـــه .

لكن وزارة الداخلية خيبت ظن « جوزيف » لأنها لم ترسله الى المنفى لمدة خمس سنوات مكتفية باعادته الى « سوليفجودسك » التى هرب منهـــا مرة من قبل .

ولما ذهب « جوزيف » الى منفـــاه فوجىء بأن الحال لم يتغير ، اذ ان المنفيين مازالوا على حالهم الذى تركهم عليه يعقدون اجتمـــاعاتهم السرية

ويناقشون النظريات ومع ذلك فان « جوزيف » هو الذى تغير فى هذه المرة لأنه قرر أن يركز على خطاباته مع « لينين » كما بدأ يشعر بالعداوة نحو البلشفيك الذين يعيشون فى الخارج وهم ينعمون بالأمن والطمأنينـــة ، مكتفين باصدار الأوامر والتوجيهات من مخابئهم الى جنــود الثورة الذين يدفعون وحدهم ثمن التمرد فى كل مرة ، من دمائهم وأرواحهم ٠

وقبل انقضاء مدة العقوبة بثلاثة أيام ذهب « جوزيف » الى موســكو تحت اسم « لادو دومباز » بعد أن عقد النية على أن يقيم بصـــفة دائمة فى قلب الحياة السياسية للامبراطورية الكبرى ، لكى يكون على اتصال مستمر بأعضاء البرلمان البلشفيك ، وفى هذا الوقت احتل « جوزيف » مكانه بين المتربعين على قمة الحزب ، وكان مصمما على ألا يتزحزح عن مركزه القيادى قيد أنملة ، مبيتــا النية على ألا ينتظر توجيهات « لينين » الأمر الذى جعله يدعو الى عقد مؤتمر فى « فيبورج » بفنلنده ، لكن « جوزيف » لم يكن يعلم ان أعين البوليس لم تغفل عنه لحظة ، كما أنه كان واهما فى اعتقاده بأن الجواز الذى يحمله باسم « لادو دومباز » سوف يخفى هويته على المخبرين، اذ ان البوليس كان قد نقل كولونيل « ماريتينوف » الذى يعرف «جوزيف» حق المعرفة من « باكو » الى « ســـانت بطرســبرج » كى يراقب تحركاته وسكناته ، وكان ان قبض على « جوزيف » وهــو على وشك السفر بالقطار الى « فيبورج » ٠

اسم جديد لستالين :

أعيد « جوزيف ستالين » الى السجن مرة أخرى ، ولكنه كان فى هذه المرة أيضا ســـعيد الحظ ، اذ أن المجلس الخاص التابع لوزارة الداخلية لم يوجه اليه تهمة معينة الا مغادرة مكان النفى من غير الحصـــول على اذن من السلطات المختصة ، ولذلك فان المجلس اكتفى باعادته الى « فولوجدا » التى وان كان ارســاله اليها ليس مما يدعو الى الحزن ، الا أنه حزن كثيرا لأنه لم يكن قادرا على حضور مؤتمر « براغ » الذى دعا اليه « لينين » والذى كان يعلم انه سيلعب دورا هاما فى تاريخ الحركة البلشـفية ، وفى هذا المؤتمر تقرر تأسيس منظمة سرية بلجنة مركزية ورياسة فى روسيا نفسها ٠

أما « ستالين » الذى استطاع ، بطريقة ما ، الهرب من المنفى فقد عاد الى « سانت بطرسبرج » كى يعد العدة ويضع الخطة للثورة القادمة ، وهكذا قام ستالين تحت اســـم جديد هـــو « بابزدانيان » بالاشراف على صحف البلشفيك : « برافدا » و « أزفستيا » ، ولكن تمتعه بالحرية لم يطل كثيرا ،

اذ أن سلطات « بطرسبرج » لم تمهله فألقت القبض عليه بعد مراقبة وتتبع صحف البلشفيك التى كان يوجهها ويشرف عليها ·

وفى هذه المرة كان الغيظ قد استبد بوزير الداخلية الذى نفد صبره وضاق صدره بجوزيف ستالين الذى تكررت مرات هربه ، لذلك صـــدر الحكم عليه بالنفى الى غرب سيبريا ، حيث تكثر الغابات الكثيفة والأدغال الموحشة والبحيرات الواسعة ·

ولكن كل هذه الصـــعاب لم تمنع « جوزيف » المغامر الجرىء من أن يســـتقل ، بعد وصوله الى المنفى بمدة وجيزة ، قاربا بخاريا ، ثم استقل قطارا الى « تومسك » ومنها الى « سانت بطرسبرج » تحت اسم « ستبيان بابدو بيولس » كاتب الحسابات غير أن أوراق اثبات شخصيته كانت فى حال تثير الريبة ، فاضطر الى أن يلزم مخبأه ، وان كان قد واصـــل اتصالاته بالزعماء ومنهم « لينين » الذى دعاه الى حضور مؤتمر الحزب المزمع عقده فى « غاليسيا » وفى هذه المرة أمضى « جوزيف » أطول مدة ممكنة مع « لينين » وزوجته « نادیادا كونستانتيفوفنا كروبسكايا » منكبا على تحرير عشرات المقالات ، وفى هذا اللقاء مع « لينين » أيضـــا رضى « جوزيف » بالاسم الذى أصر « لينين » على أن يسميه به وكان يوقع مقالاته باسم « ستالين » ·

وفى طريق عودته الى « سانت بطرسبرج » قابل للمرة الأولى الطالب « فياشسلاف ميخائيلوفتش سكرايبين » الذى أسكنه مع والديه ، ومع أن ـ ميخائيلوفتش لم يكن قد تجاوز الحلقة الثانية من العمر الا أن ســتالين أعجب به وأضفى عليه لقب سكرتير تحرير « البرافدا » ، ومنذ هذا اليوم أصبح ميخائيلوفتش ـ الذى عرف فيما بعد باسم « مولوتوف » اليد اليمنى والقلب الوفى والرفيق المخلص لستالين ·

لكن ستالين عاد فوجد نفسه مرة أخرى مضطرا الى تجميد نشـــاطه لأن البوليس هاجم مسرحا كان من المعتقد ان ستالين بداخله ، وسرعان ماتم القبض عليه بعد اكتشاف وجوده ، وحكم عليه بالنفى لمدة أربع سنوات فى شمال سيبريا حيث قبع ستالين يائسا من الهرب فى هذه المرة ، فانكب على كتابة الخطابات التى رسم فيها الخطوات الواجب اتخاذها فى النضال الثورى ، ولكن خطابا من هذه الخطابات وقع فى يد حاكم المقاطعة فأسرع باعداد الترتيبات لنقله الى قرية نائية تقع فى المنطقة القطبية ·

وفى هذا المكان الجديد تمكن ستالين ، الذى أضناه السقم ونالت منه

الوحدة والعزلة ، من انجاز الجزء الثانى من مؤلفه « دراسات حول مشاكل القوميات » ، الذى أرسل الى « لينين » وفى الوقت نفسه وصـــله البيان المعروف باسم : « بيان الى الحزب والطبقة العاملة » وهو البيان الذى وضعه زعيم البلشفيك حينما كان فى سويسرا ٠

لكن معظم المنفيين فى سيبريا لميوافقوا زعيمهم فيما ذهب اليه ، حتى لقد صاح أحدهم قائلا: ان كتاباته الاخيرة لتنطق بحمق هذا الرجل الارعن الذى يتلذذ بالقسوة والعذاب والذى يريد أن ينتهز فرصة الحرب ليثـير الاحقاد الدفينة ويوقظ الفتنة النائمة التىستغرق العالم الى شعر رأسه فى بحر من الدماء » ٠ ومع ذلك فان رجلا واحدا لم يتعرض لكلمات « لينين » بالهجوم أو التجريح ، ولم يكن هذا الرجل سوى « ســـتالين » الذى كان يرى فى العنف وحده السلاح الفعال لخوض النضال ، وأن الدم هو القـوة المحركة لعجلة التاريخ ٠

جهاز الحكم يوشك على الانهيار فى حين أن شرارة الثورة تندلع :

لما اشتدت الحرب شعر القيصر بضرورة الحصول على المزيد من جنود المدفعية ، فأصدر مرسوما بتجنيد الشبان ، لكن « ستالين » الذى أصـابه الدور لم ينخرط فى ســـلك جنود المدفعية بسبب عـدم لياقتـه للخدمة العسكرية ولا يعلم أحد ما اذا كان المقصود بعدم اللياقة ، سوء حال ذراعه وقدمه ، أو بسبب انتمائه الى البلشفيك الخطرين على الجيش ٠

وبعد أشهر قليلة كان الرجل الذى اكتسب « خبرة طويلة » فى فن الهرب قد أعد العدة لاستعادة حريته ، وأخيرا ، وبفضل المعجزة ، استطاع أن يحصل على أوراق باسم جديد هو « بيوتر جالكين » ولاذ بالفرار ٠

فى ذلك الوقت كانت الفوضى قد استشرت فى روسيا ، كما اغتيل « راسبوتين » وأصبح الاقتصاد الروسىعلىوشك الانهيار ، وعمتالاضرابات كل أرجاء البلاد ،فضلا على أن جهاز الحكم قد أصابه خلل شديد تمخض عن الانهيار التام بعد أناندلعت شرارة الثورة فى الضواحى التى تركز فيهـا عمال سانت بطرسبرج ، وسرعان ما بدأت ـ الاشتباكات وحمى وطيس القتال فى شوارع سانت بطرسبرج ٠

أما القيصر فقد حل البرلمان ، فى حين ألقى القبض على وزرائه وفى الوقت نفسه شكل مجلس سوفييت موسكو ، وتطور سوفييت بطرسبرج فأصبح سوفييت العمال والجنود ، وتم اعلان تشكيل الحكومة المؤقتة كمـا

تنازل القيصر نيقولا الثانى عن العرش لأخيه « الدوق ميخائيل » الذى تنازل بدوره عن العرش فى اليوم التالى ، وعلى أثر ذلك أعلن البلشفيك أهدافهم التى تلخصت فى « الدكتاتورية الديمقراطية للبروليتاريا والفلاحين • »

أما الحكومة المؤقتة فقد أصدرت عفوا شاملا عن كل المعتقلين والمسجونين السياسيين وبذلك سقط الحكم عن ستالين الذى رحل تحت اسمه الحقيقى ـ لاول مرة ـ قاصدا سانت بطرسبرج •

الفصل الرابع

لا مكان لستالين

عندما وصل ستالين الى محطة بطرسبرج ، وجد كل أعضـاء حزب البلشفيك قد اصطفوا لاستقباله والترحيب به ، ومع ذلك فان رده على هذا التكريم كان كلمة جريئة صريحة أوضح فيها أنه لا يعتبر البلشفيك قادرين على الاســتيلاء على الحكم ، ومع ذلك فانه عـدل عن رأيه بعد ذلك وأسس « اللجنة المركزية الروسية » من غير استشارة لينين ٠

ستالين ٠٠ نائب عن لينين :

فى ذلك الوقت كان ستالين لا يزال على حبه « لمولوتوف » بل لقد كان ينظر اليه على أنه مساعده الأول ، ومع ذلك فان الطالب الشاب الذى كان قد أصبح رئيس تحرير « البرافدا » حاول أن يسخر اللجنة المركزية التى أسسها « لينين » ، ضد اللجنة الجديدة التى أسسها أستاذه أخيرا ٠

وفى ذات يوم قال ستالين لـ « فياشيسلاف ميخائيلوفتش » :

« عليك أن تختار أحد الشيئين ، لأن المرء لا يستطيع أن يجلس على مقعدين فى وقت واحد ٠٠٠ انك لم تزل بعد صبيا لا يدرك ضرورة النظام بالنسبة للحزب ، أما نحن البلشفيك العتاه ، ٠٠٠ أجل نحن الذين عاصرنا الحركة الثورية منذ أن كانت فى المهد ٠٠٠ فعلينا أن نقدر الجماهير ، ولن نسمح لهذه الجماهير بأن تقودنا ٠٠ ألست توافقنى على ذلك ؟ ٠

أما مولوتوف فقد أومأ موافقا ٠

ومضت الأيام بعـد ذلك ، وطالت غيبة « لينين » فى الخارج ، لذلك فان بعض الاعضاء رأى أن يتم اختيار من ينوب عنه ، ومع أن معظم الأعضاء قد اتفقوا على ترشيح « كامينيف » فى بادىء الأمر ، الا أن « ستالين » كان هو الرجل الذى تم انتخابه أخيرا ليكون نائبا عن « لينين » ، لكنه لم يتمتع بمركزه الجديد كزعيم مؤقت للحزب مدة طويلة ، اذ أن « لينين » تمكن ، بعد مغامرة طويلة ، من العودة الى روســيا ، وما ان وطئت قدماه أرض الوطن حتى قاد حملة هجوم خاطفة ضـد بعض الزعماء الذين يتشدقون بمبادىء البلشـفية وأهدافها ، والبلشـفية منهم براء ، لذلك قد أشار الرجل الى « ستالين » على انه أحد هؤلاء ٠

وما أن فرغ « لينين » من هجومه حتى شرع يلقى خطابا فى الجماهير الغفيرة تناول فيه الموقف الدولى قائلا :

« ان هذه الحرب التى أشعلت نيرانها عصابات الامبرياليين ، ليست الا الشرارة الاولى التى ستنتهى باندلاع الحرب الاهلية فى أوربا ٠

ان شمس الثورة الاشتراكية الشاملة قد أوشكت على البزوغ ٠٠٠ وما ان هتف « لينين » بحياة الثورة الاشتراكية حتى اندفعت الجماهير وقد تملكتها الحماسة ، نحو « لينين » الذىوجد نفسه فجأة محمولا على الأعناق، تتلقفه الأيدى حتى استقر فوق سيارة مصفحة ، ومن فوق السيارة استمر « لينين » فى اثارة عواطف الجماهير وحماستهم ، وعبثا حاول « ستالين » أن يثنيه عن عزمه ، كما أنه لم يفلح فى اغرائه على مغادرة السيارة لحضور المؤتمر ٠

تحويل الاشتراكية الى شيوعية :

لما اجتمعت اللجنة المركزية فى المقر المركزى للحزب تحت رياسة « ستالين » خطب فى الأعضاء قائلا :

« ان الاشتراكية المعاصرة انما هى عدو البروليتاريا الدولية ، بل ان اسمها نفسه قد كان بدعة ابتدعها بعض زعمائها الذين غرروا بها وخانوها ٠٠٠

ولما كان من المحال تطهير هذه الاشتراكية ، من رجس الزيف ، لذلك وجب علينا أن نلقى بها بعيدا عنا كما نلقى بالخرقة القذرة ، كذلك وجب علينا أن نرتدى الثوب الجديد النظيف ، ألا وهو الشيوعية ، وأن نسمى أنفسنا من الآن « بالحزب الشيوعى » ٠

لكن هذا الاقتراح لم يظفر بموافقة أى عضو فيما عدا « لينين » واتخذ المجتمعون قرارهم بالاحتفاظ بالاسم القديم وهو « حزب البلشفيك الديموقراطى الاشتراكى » ٠

أما « ستالين » الذى كانت الأطماع تجيش فى صدره وتملك عليه جل تفكيره فانه على الرغم من معارضته أستاذه ومعلمه فانه آثر أن يخفى مطامحه لوقت معلوم ، ومع ذلك فقد كان مصمما على ألا يتنازل عن مركزه، ولو اضطره ذلك الى الوقوف ضد « لينين » ٠

وبمجرد عودة « لينين » الى الروسيا فاجأ « ستالين » بهذه الكلمات :

« انى أعرض عليك صداقتى ، فأنا فى أشد الحاجة الى رجل عملى مثلك يتمتع بالخبرة والتجارب الواسعة ، والشجاعة الكاملة ، ويتقن طريقتك فى تكوين الجماعات السرية من الرجال المسلحين » ·

واستطرد « لينين » بعد ذلك : « اننا يجب أن نطيح بالحكومة المؤقتة وسـوف نفعل ذلك حينما نتأكد من أن الجماهير معنا ، وانى لعلى يقين بأن ذلك سيتم عما قريب » ·

لكن « ستالين » لم يتكلم ، وانما اكتفى بالتحديق فى وجه « لينين » الذى ربت على كتفه بحنان بالغ فى حين ارتسمت ابتسـامة الاخاء على محياه ·

أما « كامينييف » الذى يحب « ستالين » أشد الحب فقد حذره من مغبة هذه الخطوة المحفوفة بالمكاره ، كما حذره من أنه قد يدفع وحده ثمن المغامرة التى يريد العجوز القيام بها ، ومع ذلك فان « سـتالين » قاطعه متسائلا :

« وماذا عساى أن أفعل ؟ لقد أصبحت ثوريا محترفا لأفعل شيئا ، لا لكى أملأ الدنيـا ثرثرة وجعجعة ، وهاهى ذى ساعة العمل الثورى قد دقت ···· » ·

لينين وتروتسكى :

من الواضح اذن أن وحدة الصف لم تكن موجودة حتى فى اللحظات الحرجة أيام كانت روسيا تعد العدة لشن هجوم جديد على الجيوش الالمانية التى أحبطت الخطة الروسية واستطاعت أن تتقدم داخل البلاد ، الأمر الذى جعل صحافة بطرسبرج غير البلشفية تنتهز فرصة فشل الخطة فى الافتئات والافتراء على البلشفيك عملاء الالمان وكلاب صيدهم ، حتى لقد أصبح لفظ « البلشفيك » مرادفا للتمرد واللصوصية والسلب ·

كان من الطبيعى اذن أن نجد « لينين » و « ستالين » يفكران فى الهرب خارج البلاد بعد أن أوشكا على الاختناق فى هذا الجو المشحون بالانفعالات والمشاعر المعادية للبلاشفة ، مما جعل « لينين » يختار لنفسه أن يهرب الى « فنلندا » حيث تمكن بعض الديمقراطيين الاشتراكيين من توفير مخبأ يأويه فى حين أصبح « ستالين » حلقة الاتصال بين « لينين » واللجنة المركزية ·

ستالين مشغول عن الحب بأمور السياسة :

ظل ستالين منكبا علىعمله ، كزعيم للبلشفيك في بطرسبرج ، يرد علىرسائل «لينين » التى كان يبعث بها من مخبأ فى فنلندا ، حتى ساق اليه القدر « ناديوتشكا » ابنة « سيرجو اليليويف » صديق ستالين الذى قبله شريكا فى مسكنه الصغير ، ولقد أعجب ستالين بثقافة الفتاة وذكائها ، فضلا عناهتمامها بالسياسةومساعدتها له فى انجاز بعضأعماله ، ومالبثت الفتاة ان وجدت قلبها وقد خفق بحب ستالين العظيم ٠

لكن ستالين كان منصرفا بكل تفكيره الى أمور السياسة والاعداد للمؤتمر السادس لحزب البلشفيك الذى كان على وشك الانعقاد فضلا عن اتخاذ الخطوات التمهيدية لانتخاب اللجنة المركزية الجديدة ٠

العداوة بين ستالين وتروتسكى :

لكن قلب ستالين الذى لم يتسع لحب « ناديوتشكا » ، قد اتسع ان لم يكن قد امتلأ ، بنار الغيظ من « تروتسكى » الخصم العنيد والعدو العتيد ، وهكذا لم يجد ستالين منسبيل الىالقضاء على هذا النجمالمنافس ، الا أن يبحث عن أصدقاء ، ولقد وجد ضالته المنشودة فى « زينوفييف » « وكامينييف » ٠

البلشفيك يتولون السلطة :

فى ١٧من يوليو عام ١٩١٧ ، وبعد ثلاثة أشهر من عودة « لينين » الى روسيا ، اندلعت نيران الثورة البلشفية الأولى فى شوارع بتروغراد ، الا أن الحكومة المؤقتة تمكنت من احباط الثورة وشنت هجوما عنيفا على البلاشفة كما صادرت صحفهم وطهرت بطرسبرج من كل قوات البلشفيك، وبازاء ذلك كله اضطر « لينين » الى الهرب ٠

وانقضت فترة استعداد قصيرة وما ان جاء شهر نوفمبر حتى تمكن الثوار البلشفيك من الاستيلاء على الحكم بعد اسقاط الحكومة المؤقتة أما « لينين » فقد تولى رياسة أول مجلس سوفييت لقوميسيرات الشعب فى حين أصبح تروتسكى قومسيير الشعب للشئون الخارجية ، وتقلد « ستالين » منصب قومسيير الشعب لشئون القوميات ، وبعد ذلك وقع اختيارهعلى « بستكوفسكى » سكرتيرا عاما لقومسييريته ، « وناديوتشكا » سكرتيرة خاصة له ٠

وبعد أن تم تشكيل حكومة البلشفيك ، كان عليهم أن يحصلوا على المال لأنهم تولوا الحكم فوجدوا خزانة الدولة خاويــــة ، إلا من ٥٠٠٠٠ر٥٠ روبل .

تروتسكي ... والثورة العالمية :

على أن الزعماء قد اختلفوا فيما بينهم ، بعد أسابيع قليلة من تشكيل حكومتهم البلشفية . والواقع أن ستالين منذ أوائل عام ١٩١٨ قد أبدى معارضة شديدة لفكرة الثورة العالمية التى بشر بها « تروتســكى » ، أما « لينين » فقد انضم الى ستالين وذهب الى القول بأن هــذه المهمة يجب أن تترك للبروليتاريا فى الاقطار الرأسمالية المعنية ، وليس على البلاشــفة الروس الا أن يركزوا على شئون وطنهم . وأخيرا اتفق الزعمــاء على ارجاء البت فى هذه المسألة .

كذلك اتفق الزعماء فيما بينهم على أن يحاول « تروتســكى » تأخير مفاوضات الصلح مع الألمان فى « بريست ـ ليتوفسك » وذلك لكى تثــور ثائرة الشعب الالمانى ويطيح بالقيصر ، ولكن حيل البلشفيك وألاعيبهم لم تخدع القيادة العليا الألمانية التىأعلنت انهاء الهدنة ، وعلى أثر ذلك تقدمت جيوش القيصر محتلة الأراضى التى انسحب منهــا الجيش الروسى ، وفى الوقت نفسه ظهرت الطائرات المقاتلة الالمانية فى سماء بطرسبرج .

على ان ســـتالين لم يكن ليقف مكتوف الأيدى أمام هذه التطورات ، لذلك عرض على حكومة البلشفيك خطته لخوض الحرب الثورية المقدســة ضد الاستعماريين الألمان ، والقيام فى الوقت نفسه بتخريب كل المناطق التى يضطر الجيش الروسى الى الانسحاب منها .

لكن « تروتسكى » الذى كان يقفلغريمه ستالينبالمرصاد ، لم يعجبه هذا النجاح الذى أحرزه خصمه ، لذلك فانه عرض على الحكومة فى اليوم التالى مشروعه الخاص بطلب المساعدة من الحلفاء لمحاربة الالمان . وكان أن قبل اقتراحه ورفضت خطة ستالين . غير أن الألمان وقعوا على اتفاقيــة الصلح بعد ذلك بشهر واحد .

ولما عرضت الاتفاقية على المؤتمر السابع لحزب العمال الديموقراطى الاشتراكى وافق عليها ، كما وافق على تغيير اسم الحزب الى الحزبالشيوعى الروسى ، وعلى أثر ذلك انتقلت حكومة السوفييت ومعها الحزب الشيوعى الى موسكو وأصبح تروتسكى « قوميسير الشعب لشئون الحرب » .

وعلى الرغم من انقضاء عدة أيام على انتقال حكومة السوفييت الى موسكو فان ستالين لم يجد مكانا « لقوميسييريته » وأخيرا وبعد جهد جهيد تمكن من العثور على مسكن متواضع مظلم ، وبينما كان ستالين ومعه السكرتير العام يتفقد مقر قوميسييريته اذا به يرتطم بشيء على الأرض جعله يفقد توازنه فسقط مصابا بخدوش غائرة فى وجهه ٠

وفى اليوم التالى بينما كان مجلس السوفييت فى احدى جلساته اذا بالرفيق « لينين » يسأل ستالين عن مصدر هذه الاصابات فأجابه على الفور : « انها نتيجة اندلاع نار الحرب الأهلية بين قوميسييرى الشعب » ٠

حكومة السوفييت تواجه أحلك أيامها :

أما الشهور التى تلت فقد كانت شهورا سوداء بالنسبة لحكومة السوفييت ٠ ذلك أن بعض قوات الجيش اليابانى تمكنت من النزول فى « فلاديفوستوك » فى شرق سيبريا ، فضلا عن أن الاتراك تمكنوا من الاستيلاء على « باطوم » وكذلك استطاع الألمان احتلال « خاركوف وتاجا نورك » وبعد ذلك بقليل « أوكرانيا » و « القرم » ٠

كذلك استطاع البعض تحت قيادة « ماترهيم » أن يطيحوا بالحمر فى فنلندة ، وشق التشيك عصا الطاعة واحتلوا أراضى الفولجا الوسطى بمساعدة الفرنسيين ، وأخيرا تمكن الألمان من احتلال « بوتى » فى جورجيا بعد أن ثبتوا أقدامهم فى أوكرانيا والقرم ٠

والواقع أن أعداء السوفييت قد بنوا خطتهم على أساس اعتقادهم بأن استيلاءهم على الأراضى الزراعية سوف يضطر أعداءهم السوفييت الى التسليم للنجاة من الموت جوعا ٠

لكن ستالين ، الذى كان مسئولا عن تموين موسكو وبطرسبرج ، رحل على رأس جيش صغير من العمال المسلحين بالبنادق قاصدا « تسارستن » ، ولما فوجىء بأن البيض قطعوا الخط الحديدى بين تسارستن وموسكو اضطر الى شحن المؤن الى موسكو بطريق البحر وأرسل فى اليوم نفسه هذه البرقية التالية :

« اننى بصدد تكوين الجيش العاشر بالاشتراك مع فورشيلوف ، ومع أن البيض يعدون العدة لشن هجوم على المدينة الا أننا سوف ندافع عن « تسارستن » دفاعا مريرا لأن فقد هذه المدينة سوف يكون ضربة قاضية

تنتهى بحرماننا من حبوبها وخيراتها ٠٠ لذلك فانى أطلب تعزيز قواتنـــا بارسال المدد ٠٠٠ »

والواقع أن ستالين قد أنجز ما وعد ، اذ أنه استطاع بهذه الحاميـة الصغيرة أن يتصدى لهجوم الاعداء وأن يلقنهم درسا قاسيا ، وفى الوقت نفسه تمكن من التصدى للخطر الحقيقى الذى كان يكمن فى جهود الاشتراكيين الثوريين لتأليبهم سكان المدينة ضد البلشفيك ، واستطاع ســـتالين فى المعركتين العسكرية والسياسية ضد البيض والاشتراكيين الثوريين أن يثبت كفاءته كمحارب صنديد ورجل قتال محنك ، كما تمكن من اجتذاب الكثيرين حوله وكون « جماعة تسارستن » التى كان من أشهر رجالها : « فورشيلوف » و « تيمو شنكو » و « بيوزوف » ٠

لكن نجاح ستالين أثار غيظ خصمه « تزوتسكى » الذى رأى أن ينتظر فرصة أخرى كى ينقض على ستالين ٠

بداية عهد الارهاب الأحمر :

واجهت الحرب الأهلية فى روسيا أياما كانت مزيجا من الحلو والمر أو النكسة والنصر ٠ ففى خلال شهر واحد ، طلب سوفييت « باكو » النجدة العسكرية من بريطانيا ، كما تمكنت جيوش الحلفاء من احتلال «اركانجل» فضلا عن أن القوات البريطانية عبرت بلاد فارس قاصدة « باكو » وفى الوقت نفسه تقدمت قوات القوقاز تحت قيادة الجنرال « كراستوف » نحو « تسارستن » ، وأخيرا استطاعت القوات الامريكية أن تهبط فى سيبريا ٠

ومع ذلك فان قوات فورشيلوف فى « تسارستن » تصدت لقوات الجنرال كراستوف وكبدتها خسائر فادحة ٠

وحينما اغتيل « يورتسكى » زعيم البلشفيك فى بطرسبرج ، وأوشك « لينين » أن يلقى حتفه على يد « فانى كابلان » الذى شرع فى اغتيـاله هو الآخر ، رد البلشفيك على ذلك « بنظام احتجاز الرهينة » كما شـنوا حملة الاعدام بالجملة تحت راية حرب الطبقات ، وكان ذلك ايذانا بقيـام حكم لوث يده بالدماء وشاء القدر لروسيا أن تلقى الأمرين على يد « الرعب الأحمر » وحكم الحزب الواحد ٠

بعد ذلك ، قام « تروتســـكى » الذى لم يكن ليغفر لستالين نجاحه الساحق فى جبهة « تسارستن » بشن أول هجوم خطير على غريمه ، وذلك باصدار أوامره الى قواد « تسارستن » بألا يطيعوا أية أوامر يصـــدرها

أى شخص سوى « سايتن » ولكن « سايتن » رفض فى اصرار تنفيذ أوامر « تروتسكى » الذى كان وزيرا للحربية فى ذلك الحين ٠

بل لقد أسرع بالسفر الى موسكو كي يناقش الأمرمع « لينين » ، وبعد ستة أيام فقط أعاد الى « تسارستن » واستطاع ، بمعاونة فورشيلوف ، أن يستعيد مكانته مرة أخرى ، وساعدته الظروف على أن يثبت كفاءته للمرة الثانية ، حينما حاول البيض تطويق المدينة ، ولكن ستالين اســتطاع أن يحبط الخطة ويفتت الحصار ، مما جعل « تروتسكى » يلجأ ـ بعد أن استبد به الغيظ والحقـــد ـ الى اقناع « لينين » بضرورة استدعاء « بطل جورجيا » الى موسكو ، ولكن ستالين الذى كان من الذكاء بحيث لم تخدعه اللعبة ، أصر على الرفض ، وحقق النصر ، فأصبح من ذلك اليوم « بطل » « تسارستن » الذى لا يبارى ٠

أوربا نضجت للثورة ٠٠٠

لما أعلنت الهـــدنة فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩١٨ ، أبدي معظم البلشفيك ميلهم الى الاعتقاد بأن الـكمثرى قد نضجت ، وأصبحت الظروف ملائمة لنشر ايديولوجيتهم والتبشير بالثورة فى أوربا الوسطى ، ولكن ستالين أبدى شيئا كثيرا من التشكك فيما يتعلق بالثورة العالمية التى أوضح للبلشفيك أنها لا يمكن أن تنجح الا اذا تأسست الاشتراكية داخل روسيا أولا ، ومن ثم يمكن أن تنجح الثورة العالمية بعد ذلك ٠

على أن الخلاف بين الرجلين كان فى جوهره خلافا فى الطبع لا فى النظريات ٠ كان « تروتسكى » ينظر الى ستالين نظرته الى المستهتر الذى نبذ الثورة العالمية ٠

أما ستالين من ناحيته فقد كان ينظر الى تروتسكى نظرته الى الانسان الطائش الذى غرق الى شعر رأسه فى تفاؤل كاذب جعله يتوهم أن اشعال الثورة العالمية يمكن أن يتم فى ساعات أو أيام ٠

ومهما يكن من أمر الخلاف بين الزعيمين ، فان سلسلة من الاحداث المتتابعة قد أخذت تترى تاركة بصماتهـــا على وجه الحياة الســـياسية الروسية :

ففى ٢٢ من نوفمبر دخلت قوات الحلفاء البحر الاسود بتشجيع من ونستون تشرشل العدو اللدود لروسيا السوفيتية ٠

وفى ٢٤ من نوفمبر عقد البيض الذين حصلوا على تأييد تشرشل ومساندته ، مؤتمرا معاديا للبلشفيك فى رومانيا ٠

ثم فى ١٣ من ديسمبر ، طالب « كليمنصو » بتنفيذ فكرة « الحزام الصحى » حول السوفييت وبعد ذلك بأربعة أيام فقط هبطت قوات الفرنسيين فى « أوديسا » ٠

وفى ٢٤ من ديسمبر استنجد «ليفينوف» ب «وودرو ويلسن» كى يعيد السلام كذلك حينما أجبرت القوات السوفييتية على التقهقر الى « فياتكا » وتدهور الموقف تدهورا خطيرا واشتدت الحاجة الى « يد من حديد » وما أن وصل ستالين حتى أجرى حركة تطهير دموية ٠

على أن وفاة « سفيردلوف » المفاجئة قد اقترنت بعدة تغيرات هامة فى زعامة الحزب ٠ ذلك أن لينين وستالين وأنصارهما المقربين قد تمكنوا من تكوين مكتب سياسى جديد ، أما ستالين فانه بالاضافة الى احتفاظه بمنصبه كقوميسير للقوميات ، أعطى اختصاصات جديدة كقوميسير للرقابة الادارية ، وبذلك حقق رغبته فى دخول دائرة الأعمال الادارية للدولة وتمكن من استكمال تعليمه فى تكتيك التنظيم الحكومى ٠

الفصل الخامس

الأقامة فى الكرملين

بعد أن حقق ستالين أمله فى رفع مركزه الأدبى ، شعر بالحنين الى « نايوتشكا » ابنة « اليليوفا » صديق الصبا ورفيق الشباب ، وان هى الا أيام قلائل حتى كانت « نايوتشكا » التى اختارها ستالين زوجة ثانية ، فى منزلهما داخل أسوار الكرملين ٠

لكن ستالين ، كعادته دائما ، لم يجد من وقته متسعا يسمح له بالاهتمام بمنزله وزوجته ، وبخاصة أن المد البلشفى كان فى هذه الفترة قد بدأ ينحسر ، وبالتالى فان ستالين كان فى شغل شاغل عن التفكير فى حياته الزوجية بالخواطر والهواجس والخوف من أن تركع موسكو أمام المعتدين فيصبح الحزب معرضا لأشد الأخطار ٠

ومع ذلك فان القدر قد أخلف ظن ستالين وبدد مخاوفه ، اذ ان البلشفيك تمكنوا من الصمود للعاصفة ، وسلم الفرنسيون قائد جيش البيض الى الجيش الأحمر ، ولم تمض أيام قلائل حتى قام البلشفيك باعدام قائد البيض الذى أراد المجلس الاعلى للحلفاء أن يجعل منه زعيما لروسيا كلها ٠

انعقاد المؤتمر الروسى العام :

بعد انتهاء الحرب الاهلية بقليل ، انعقد أول مؤتمر روسى عام حضره ممثلو الجمهوريات الروسية المختلفة ٠ وفى هذا المؤتمر تم انتخاب ستالين عضوا فخريا فى مكتب رياسة الحزب الشيوعى ٠

لكن الحرب الأهلية لم تكن قد انتهت بعد ، اذ أن الجيش الأحمر تمكن من غزو جورجيا ، بناء على أوامر صدرت اليه من ستالين الذى لم يستشر زعيمه ولا غيره ، أملا فىأن يواجه المكتب السياسى « البوليتربو » بالأمر الواقع ، ومع ذلك فان فرحة البلشفيك بالنصر لم تتم اذ أن « كرونستاد » قد أعلنت العصيان ، وطالب المتمردون بالغاء دكتاتورية حزب البلشفيك واجراء انتخابات حرة لتشكيل مجالس السوفييت ٠

والواقع ان هذه المحنة التى واجهت البلاشفة لم تكن من البساطة بحيث يمكن الاستخفاف بها ، الا أن ثورة «كرونستاد» الشهيرة قد ساعدت لينين على التقدم لأنها ساعدته على اعادة توحيد الحزب ، كما ان زعماء

المعارضة الذين اشتركوا فى تدبير تمرد البحارة قد عزلوا على الفور ، وعهد الى ستالين بمهمة وضع قرار يقضى بامكانية اعدام كل الأعضاء الذين ينظمون تمردا من أى نوع داخل صفوف الحزب ٠

اللجنة المركزية للمؤتمر الحادى عشر تنتخب ستالين سكرتيرا عاما :

بعد ذلك كان على ستالين ان يقوم بجولة داخل القطر ، كى يفرض أحكام البلشفيك وقوانينهم ، وبعد هذه الجولة تأسست منطمة جديدة استعملها ستالين كأداة فعالة للرقابة والقمع والارهاب تحت اسم « ادارة البوليس السياسى » ٠

أما لينين فقد كان فى ذلك الوقت يعانى من اعتلال صحته ، مما جعله يعجز عن الاضطلاع بدور فعال فى حكم البلاد ، ولذلك اشتدت الحاجة الى رجل قوى ليكون خلفا له ، ولم يكن هذا الرجل سوى ستالين الذى انتخبته اللجنة المركزية سكرتيرا عاما للحزب فى أثناء انعقاد حزب المؤتمر الحادى عشر ، كما وقع الاختيار على « مولوتوف » ، و « كيو بشفيف» ليكونا مساعدين له ٠

وبعد ذلك بستة أسابيع هاجم الشلل ذراع لينين اليمنى وساقه ، ولكن ستالين لم يشأ أن يذيع الخبر خوفا من أن يفتح لمعارضيه ثغرة تمكنهم من القيام بحركة من أى نوع تستهدف استيلاءهم على مقاليد الحكم، ومع ذلك فان هؤلاء المعارضين الذين عارضوا بكل قوتهم السياسة الاقتصادية الجديدة الستالينية ، قد حاولوا الاستفادة من العلة التى دهمت لينين ، الا أن ستالين لم يمهلهم وشن حملة تطهير واسعة النطاق ٠

أما الخطوة الأولى التى اتخذها ستالين فقد كانت القاء القبض على زعماء الثوريين الاشتراكيين ، ثم التحالف مع « جنريك جيريجوريفوش بوجودا » رجل البوليس السياسى القوى والصيدلى الشهير ، الذى كان على أتم استعداد لتقديم خدمات شخصية من أية نوع ٠

وفى أكتوبر ، انتكست صحة لينين بعد تحسن طارىء ، واشتدت العلة عليه فاحتجب عن الأنظار ، واعتزل الحياة السياسية وترك مقعد الزعامة الذى سرعان ما تبوأته لجنة ثلاثية تكونت من ستالين ، وكامينيف، وزينوفيف ، وهكذا كانت العلة سببا فى أن يكون المؤتمر العاشر لمجالس السوفييت أول مؤتمر ينعقد بدون حضور لينين الذى لازم فراش المرض ٠

وهكذا استتب الأمر لستالين الذى أصبحت زعامته كاملة تامة لايمكن

أن تلقى أى تحديات من داخل الحزب ، وحينئذ رأى ستالين أن يدعو الى عقد أول مؤتمر للاتحاد السوفييتى ، وفى هذا المؤتمر اتفق بصفة رسمية على تسمية روسيا « باتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية » •

ومن المؤكد ان بعض حركات المعارضة قد ظهرت فى الأعوام التالية ولكن الستار أزيح عنها بسهولة بفضل المكتب السياسى الذى كان آلة أحسن ستالين استعمالها ، وبفضل أجهزة الاستماع السرى التى كانت تمكنه من الوقوف على كل ما كان يدور بين أعضاء المكتب السياسى واللجنة المركزية ، وبذلك استطاع ستالين أن يلم بكل المناقشات التى دارت بشأن اختيار خليفة لينين ، وبذلك أيضا تمكن من معرفة طرق فعالة لضرب الخطة التى وضعت للقضاء عليه •

لكن ستالين وجد نفسه فى مأزق ، إذ أن المهندس التشيكى الذى تولى تركيب أجهزة الاستماع السرى كان ثرثارا ، وكان أن دفع الرجل حياته ثمنا للثرثرة والكلام بلا حساب •

بين ستالين وزوجة لينين :

ظلت صحة لينين فى تدهور مطرد ، فلزم فراشه فى الكرملين وقد عجز عن القيام برحلته الى جوركى ، وطوال فترة مرضه كان ستالين زائرا منتظما يتردد على زعيمه فى فترات متقاربة •

وفى ذات يوم ، تلقى ستالين رسالة بخط «كروبسكايا» زوجة لينين وما أن أتى على أولى كلماتها حتى أسرع الى التليفون صائحا فيها بقوله :

« اننى أطلب منك أن تكفى عن ارسال أية مذكرات أخرى ! انها ليست بخط « فلاديمير اليسن » ، وانما انت التى كتبتها ، ولست بحاجة الى تعليماتك ••• »

أما زوجة لينين التى كانت الطرف الثانى فى المكالمة التليفونية فقد أصرت على أن زوجها هو الذى أملى عليها كلمات الرسالة ، ومع ذلك فان ستالين لم يكن ليقتنع بهذا الاعتذار ، وظل على حاله ثائرا محتد المزاج •

وبعد يوم واحد فقط تلقى ستالين رسالة كتبها لينين بخط مرتعش جاء فيها مايلى : —

«بعد هذا المسلك الفظ الذى لا يغتفر ، ازاء «ناديادا كونستا نتينوفا» أجدنى مضطرا الى قطع كل صلات الصداقة وروابط الاخوة بينى وبينك » •••

كذلك لما شعر لينين بأن من واجبه أن يسدى النصح بشأن تنظيم زعامة الحزب ، ضمن الوثيقة التى كتبها والتى عرفت بعد ذلك بالوصية ، هذه الكلمة :

« ان ستالين ، بعد أن أصبح سكرتيرا عاما للحزب قد جمع سلطة واسعة فى يده ، ولست واثقا مما اذا كان يستعمل هذه السلطة دائما بالحذر والحرص المطلوبين ... »

وبعد الحادث الذى وقع لزوجته على يد ستالين أضاف لينين هذا التذييل :

« اننى أقترح على الرفقاء أن يبحثوا عن وسيلة لابعاد ستالين عن هذا المنصب ، حتى نرشح له رجلا ، أكثر منه صبرا ، وأشد منه اخلاصا ، وأقل تعرضا للنزوات والهوى ... الخ .

وصية لينين :

قبل وفاة لينين بعام واحد ، أملى ـ للعرض على مؤتمر الحزب ـ وصية ، لخصها مكليس فيما يلى :

« أما « زينوفيف » و « كامينييف » فانهما ركنان أساسيان للحزب لفرط اخلاصهما وولائهما له فى حين أن « بوخارين » من طلاب العلم ، لا يحسن الجدل لسببين : أولهما استغراقه فى طلب العلم وتحصيله ، وثانيهما افتقاره الى الواقعية ، وافراطه فى العواطف ، وفى الوقت نفسه أجد أن بياتاكوف ، وان كان علما من أعلام الادارة ، الا أنه على شاكلة « بوخارين » ليس أهلا للزعامة السياسية .

أما تروتسكى فمع انه ليس بلشفيا غير أننى أرى أن تغفر هذه الكبوة كما غفرنا من قبل زلات «زينوفيف» و «كامينيف » لموقفهما فى أكتوبر عام ١٩١٧ .

ويبقى بعد ذلك ستالين الذى وان كنت لا أرميه بعدم الصلاحية للمناصب السياسية الا انه عنيف وفظ القلب ، لا يتورع عن استغلال سلطته فى حسم الاختلافات الشخصية . »

على أن لينين ، على ضوء ما بلغه من الخلافات بين الشيوعيين ، قام بتقوية « مذكرته » فأضاف اليها الأسطر التالية :

ومع ذلك فيجب دراسة احتمالات استبدال « ستالين » بسكرتير عام آخر تكون له الكفاءة نفسها ويمتاز بأريحية فى معاملاته مع مرءوسيه » .

ستالين يصبح خليفة لينين في المؤتمر الثاني عشر :

لما انتهى ستالين من قراءة هـــذه المذكرات ، رفع بصره الى المجتمعين من أعضاء المكتب السياسى وبادرهم متسائلا :

« أترون من الضرورى أيها الرفقاء ، أن نحاول تصحيح هذهالمذكرات بطريقة أو بأخرى ؟ »

وحينئذ انبرى « زينوفيف » مجيبا على سؤاله بقوله :

« ان هذه المذكرات مجردة من أى قيمة سياسية ، ولذلك فانى أرى حفظها « فى الارشيف » وهذا كل ما يمكن أن نفعله بها ٠٠ »

والواقع ان هذا الاقتراح قد صادف هوى فى نفوس كل أعضـــاء المكتب السياسى الذين لم يسلم واحد منهم من نقد لينين وتجريحه ٠

ولما اكتشف لينين أن مذكراته ، التى أوصى بألا تقرأ فى حياته ، قد فتحت وقرئت ، أسرع بطلب المساعدة من « تروتسكى » ، ومـع ذلك فان ستالين « الجيورجيانى » قد أصبح خليفة لينين ، فى المؤتمر الثانى عشر ، بعد أن باءت جهود تروتسكى من أجل مساعدة لينين بالفشل الذريع ٠

وفى ذات يوم ، دعا ستالين أعضاء المكتب السياسى الى الاجتمـاع ، بعد زيارة قصيرة للزعيم العجوز ، وفى هذا الاجتماع أخبرهم بأن الرجل الذى تقدم به العمر لم يعد يحتمل آلام المرض ، لذلك فانه طلب منى بعض السم كى ينهى حياته ويهرب من آلام العلة حينما يصبح الصبر عليهـــا واحتمالها شيئا لا يطاق ٠

على أن ستالين وجد نفسه مضطرا ـ فى الوقت نفسه ـ الى تأجيل بعض المسائل السياسية الداخلية ، وذلك للاستعداد لمواجهة الموقف الجديد الذى ظهر فى المانيا ، أو بتعبير آخر ، فطن ستالين الى أن الوقت قد حان لتحديد اتجاه السياسة الخارجية له وللاتحاد السوفيتى ٠

فى ذلك الوقت كان الموقف الثورى فى المانيا قد نضج ، ممـا حدا بستالين الى أن يبعث برسالة الى اللجنة التنفيذية للكومنترن ضمنها تحليلا وافيا للموقف ، وانتهى الى نتيجة هامة هى أن صـــبغ المانيـــا بالصبغة السوفييتية يعتبر من المستحيل فى هذه المرحلة ، واختتم ستالين رسالته الى اللجنة التنفيذية باقتراح عقد تحـــالف مع الديمقراطيين الاشتراكيين الالمان ، على أن يتم القضاء عليهم فيما بعد ٠

ودقت ساعة العمل ، فقام ستالين كخطوة أولى بابعاد « تروتسكى» عن موسكو وقد كان مسافرا الى الجنوب للعلاج ، وخلا له الجو فدعم مركزه وثبت أقدام مولوتوف ، وكان هذا التصرف كفيلا باثارة شكوك «زينوفيف» الذى لم يجد بدا من عقد اجتماع سرى للحزب ، ووجه دعوة الى ستالين كى يحضر مناقشة الموقف مع الأعضاء .

غير أن ستالين لم يحضر المؤتمر واكتفى بارسال برقية مقتضبة تضمنت الكلمة الآتية :

« ان لدى من الأعمال المفيدة ماهو أهم من الثرثرة مع جماعة من المتعطلين » .

وفى الوقت نفسه عمد الجيورجيانى الداهية الى خطب ود العناصر الواسعة النفوذ داخل المكتب السياسى ، فغير اسم مدينة «يليزافتجراد » الى « زينوفسفسك » ، كما غير اسم « تافر » الى « كالينين » ، و «بيرم» الى « مولوتوف » ، وفلاديكافكاز الى « أوردوزكينر » و « ساماراا » الى « كيوبيشيف » . وفى الوقت نفسه أطلق اسم كامينيف على مدينة صغيرة وأصبحت « جاشينا » وهى بالقرب من بطرسبرج « تروتسكى » .

أما الزعيم الكبير فلم يطلق اسمه على أى من المدن ، الأمر الذى جعل فورشيلوف يطالب بتغيير اسم تسارتسن « الىستالينجراد ، ولما كان لينين ليس خصما قويا لستالين بسبب مرضه الخطير ، لذلك فان ستالين لميكن بحاجة الى تكريمه وخطب وده ، ولم يأت دور الزعيم العجوز الا بعد وفاته حينما غير اسم بطرسبرج الى ليننجراد » .

على أن ستالين قد شعر بالأسف على خطئه الذى ارتكبه حينما نظر الى خطورة لينين نظرة كلها استخفاف ، اذ انه ما لبث أن وقف على أخبار مؤكدة تفيد عزم لينين على كتابة وصية جديدة ينصح فيها بضرورة معاملة ستالين وأنصاره ، معاملة أشد قسوة من المعاملة التى أشار اليها فى الوصية الأولى .

واعتكف ستالين فى مكتبه يتأمل ويفكر حتى انتهى الى خطة جهنمية وان هى الا ساعات قليلة حتى كان الطبيبان الخصوصيان «للينين» يصعدان الدرج المؤدى الى مكتب ستالين ، ومن الواضح أن قدومهما الى ستالين فى وقت واحد لم يكن بطريق المصادفة ، وبعد يوم واحد من المحادثة السرية مع الطبيبين ، أو على وجه التحديد فى ليلة ٢١ من يناير عام ١٩٢٤ دق جرس التليفون فى مكتب ستالين ، وحملت اليه أسلاك البرق الخبر الأليم فأصدر أوامره الى كل المحطات اللاسلكية السوفييتية بأن تذيع باستمرار:

« لقد مات لينين ... فلتحيا اللينينية ... ! »

الفصل
السادس

هل قتل ستالين زعيمه بالسم ؟

لما علم تروتسكى بنبأ وفاة لينين أسرع بارسال برقيـــة تعزية من « تفليس » الى ستالين الذى رد على البرقية برسالة حدد فيها تاريخا غير صحيح لتشييع الجنازة ، ليضيع على تروتسكى فرصة الاشتراك فيهـا . وليحول دون جذب الانظار اليه والتفاف الناس حوله لما اشتهر به منذلاقة اللسان وقوة البيان والقدرة على اثارة مشاعر الجماهير .

لكن (تروتسكى) الذى لم يفطن الى الخدعة الا بعد حين فسر هـــذا المسلك من جانب ستالين تفسيرا مغايرا . اذ قال ان ستالين قد خدعنى وكذب على لأنه كان يخشى أن أربط بين هذه المحادثة السرية التى تمت فى المكتب السياسى حول موضوع السم . وبين وفاة لينين .

ستالين يقرر ابعاد تروتسكى :

كان من الواضح اذن أن ستالين لن يمهل تروتســكى ـ الذى قرر بينه وبين نفسه أن ينتصر عليه إنتصارا نهائيا . وهكذا ظل ستالين يتحين الفرصة المواتية . حتى تمكن من فصله من منصبه العسكرى كقومسيير للحرب ، وعينه بدلا من ذلك مديرا لمحطات توليد القوى الـــكبريتية فى الاتحاد السوفييتى وفى الوقت نفسه عين ميـكائيل فاسيليفتش فرونز وزيرا للحربية .

لكن ستالين الذى أعماه المقت الشديد لتروتسكى شعر بعد حين أنه لم يكن موفقا فى اختيار « فرونز » الذى وان كان على درجةعالية منالكفاءة العسكرية الا أنه كان عنيدا معتدا بنفســـه يرفض تلقى الأوامر من أى انسان . وما لبث وزير الحربية العنيد أن دفع ثمن عناده واعتزازه بنفسه وقد كان الثمن باهظا . لأنه دفع حياته . وقتل بالسم داخل مكتب ستالين فى الـكرملين .

ستالين يجرى حركة تطهير واسعة النطاق :

على الرغم من أن ستالين بذل قصارى جهده لتنفيذ برنامج التصنيع الاجبارى فان التقدم الذى تم احرازه فى هذا الصدد كان تقدما بطيئـــا للغاية ، ومع أن كثيرا من الأشخاص قد أودعوا السجون بسبب اتهامهم بالتخريب والاختلاس والاهمال ، غير أنالسبب الحقيقى لهذا التقدم البطىء

فى ميدان التصنيع كان هو الحاجة الى الأيدى العاملة الماهرة لأن الفلاحين آثروا الاستمرار فى كسب قوتهم من الارض وغلاتها بدلا من الارتباط بالمنظمات الجماعية السوفيتية ٠

لكن هذه المشاكل كانت جزءا صغيرا من المشاكل الكثيرة التى واجهت ستالين ٠ وسببت له القلق وانشغال البال ٠ فلقدوصلت معلومات خطيرة تفيد بأن نحو ٨٠٪ من البلشفيك القدامى الذين هم العمود الفقرى للحزب ٠ قد تحولوا ضده وتنكروا له فضلا عن أن أحد كبار معارضيه وهو « أودلف ابراموفتش جوفى » قد انتحر بعد أن ترك رسالة لتروتسكى أوصى فيها بضرورة محاربة ستالين الطاغيةبكل الوسائل المعروفة للثوريين فى تصديهم لاعداء الشعب ٠

أما تروتسكى فقد أعلن ضيقه باستبداد ستالين الذى ملأ السجون والمعتقلات بالتروتسكيين ٠ بعد أن اكرهوا على الادلاء بالاعترافات الكاذبة تحت أدوات التعذيب وبواسطة أساليب البوليس السرى ٠

كان من الطبيعى اذن أن ستالين ، الذى ضاق ذرعا بالمعارضة وزعمائها ، قد صمم على التخلص من تروتسكى ٠ وان هى الا أيام معدودة حتى كان الخصم العنيد قد وضع فى القطار الذى أقله الى المنفى ٠ وهكذا استطاع ستالين ٠ عن طريق نفى تروتسكى الى سيبريا ٠ أن يرضىأولئك الذين أصروا على ضرورة اقتلاع المعارضة من جذورها ٠ كما استطاع عن طريق اعادة قبول زعماء المعارضة الآخرين الى الحزب ، ان يصل الى نوعمن الاتفاق أشبه بالهدنة مع عناصر المعارضة ٠

بعد ذلك تحول ستالين الى الجيش ٠ محاولا أن يحصل على تأييده ومساندته ، ومن هنا فانه دعا الى عقد مؤتمر عسكرى حيث ألقى على القواد المجتمعين خطابا تاريخيا وعد فيه باتخاذ كل الاجراءات الممكنة لتطوير الجيش وتجهيزه بأحدث الأسلحة والمعدات والسيارات المصفحة والطائرات المقاتلة ٠ وبفضل هذا الخطاب تسنى لستالين الذكى أن يحصل على تأييد الجيش له ٠ وموافقة العسكريين على تنفيذ برنامج التصنيع على حساب الفلاحين ٠ وكانت الجولة الثالثة٠هى الحزب الذى أراد ستالين ٠ أن يطهره تطهيرا تاما من كل العناصر المعادية ٠ فكلف مولوتوف بالقيام بحركة تطهير واسعة النطاق للتأكد من ولاء أعضاء الحزب ٠

سوء العلاقة بين ستالين وزوجته :

في ذلك الوقت كانت العلاقة بين ستالين وزوجته « ناديوتشكا » قد أصبحت في شر حال ٠ لأن الزوجة الجميلة الذكية المثقفة ٠ المتعطشة الى القيام بدور فعال في الحياة السياسية ٠ كانت قد ضاقت ذرعا بستالين الزوج الفظ الغليظ القلب الذي ينعتها أمام الضيوف بأبشع الصفات والألفاظ التي تجرح حياءها وتطعن كرامتها في الصميم ، وبجانب كل هذا الاذلال واهدار الكرامة كان ستالين عديم الاهتمام بأسرته دائم الاهمال لمنزله ٠

ومع أن ستالين كان مفتونا بجمال زوجته ٠ مأخوذا بسحرها ٠ الا أنه لم يجد حرجا من الابقاء على علاقاته بعشيقاته ٠ مما جعل الزوجة تشكوه الى شقيقها « بافل » والى أخويها غير الشقيقين « ريدنس ٠ وآبل ينوكيدز» اللذين تمكنا ، بعد جهود مضنية وبمساعدة سيرجو أورزوتكيدز وسيرجو اليلوييف من اعادة السلام الى الاسرة التي كادت أن تتفكك بسبب تصرفات ستالين الخشنة واهماله زوجته وتماديه في اذلالها ٠

وبعد أن هدأت ثائرة الزوج الذي أغضبه من زوجته اقحام الآخرين في شئونهما الخاصة ٠ وبعد أن عاد السلام الى الاسرة ٠ شعر ستالين بأنه قد أصبح الآن أكثر قدرة على الاهتمام باسراع خطا التصنيع وفرض النظام الجماعي على المزارع الروسية ٠

لذلك أصدر أوامره الى أولى الأمر في الجمهوريات السوفييتية بأن يتولوا هذه المهمة على أن يخبروه بالنتائج بصفة مستمرة ٠ وكان هذا التكليف كفيلا باجبار هؤلاء الذين يأتمرون بأمر ستالين والذين يعرفونه حق المعرفة ٠ على التنكيل بالفلاحين وطردهم من منازلهم ومصادرة أملاكهم من الماشية والخيل ٠ ونفي زوجاتهم وأطفالهم الى سيبريا والمناطق القطبية وما ان وافت سنة ١٩٣٢ حتى كان معظم الاراضي قد صار خاضعا في زراعته للطريقة الستالينيةالجديدة برغم أنفالقولاق (ملاك الاراضي) وكيد الفلاحين وتذمرهم ٠

لكن السلام الذي عاد الى منزل ستالين لم يكن سلاما طويل الأجل ، اذ أن رب الأسرة الذي صالح زوجته ووعدها بالتخلص مما أغضبها قدسمح لنفسه بارتكاب غلطة كبيرة حينما اذن لزوجته بالاختلاط مع عامة الشعب والذهاب الى المدرسة الفنية لطلب العلم ٠

لقد كانت زوجة ستالين تعتقد ، قبل ذهابها الى المدرسة ، ان كل

خطوة اتخذها زوجها وحكومته كانت مسخرة لخدمة الهدف العظيم • هدف تحقيق الرخاء للشعب • ومن الواضح أنها كانت تعتقد أيضـــا أن هـذا الهدف يستحق من الشعب أن يضحى فى سبيله • وان يحرم نفسه من أشياء كثيرة حتى يتسنى تنفيذ برنامج التصنيع على أوسع نطاق • كذلك من المؤكد أن « ناديوتشكا » قد صدقت زوجها حينمـا أعلن أن الظروف المعيشية للعمال قد تحسنت كثيرا عما كانت عليه •

ولكن الزوجة التى صدقت ستالين قد اكتشفت فى المدرسة الفنيـة أن الحال على النقيض من ذلك • فلقد علمت أن زوجات وأطفال الـكادحين من الشعب قد حرموا من نصيبهم من الطعام • كما أدركت أن عددا كبيرا من الكتابيين والاطباء والموظفين قد اكرهوا على العمل ليل نهار ، أو اضطروا الى الجمع بين عملين حتى يتفادوا الموت جوعا •

أضف الى ذلك كله ان الزوجة الطالبة قد صـــدمت لما سمعت من زميلاتها فى الدراسة اللائى كن يعطفن على قضية الفلاح • حقائق محزنة عن واقع السجن بالجملة والاعدام بالجملة والنفى بالجملة • وهـــو الواقع الذى ابتلى به الفلاح المغلوب على أمره فى عهد ستالين •

لكن الزوجة الطيبة اعتقدت أن زوجها لم يكن يعلم كل ذلك • لهذا أسرعت اليه تخبره بما حدث ولشد ما كانت دهشتها • بل لشد ما كانت فجيعتها حينما وجدت زوجها ، الذى يعلم كل شىء ، قد اكتفى بهز كتفيه ولومها على ترويج الشائعات والدعايات التروتسكية • وازداد الامر سوءا حين قصت « ناديوتشكا » على زوجها ما ســـــمعته من زميلين عائدين من أوكرانيا • عن المجاعة التى انتشرت والبؤس الذى خيم • والاتجار فى الأعراض والفسق والبغاء الذى لوث كل شبر من أرض أوكرانيا • حينئذ صدمت « ناديوتشكا » ولم تصدق اذنيها وطلبت من زوجها أن يفعل شيئا لوضع حد لهذه المهازل ، ولكنه انهال عليها شتما واغلظ لها القول • بل طلب منها الانقطاع عن الذهاب الى المدرسة الفنية • وتجاوز الحد المعقول فكلف « باوكر » قائد حرس الكرملين بالبحث عن الطالبين وايداعهما السجن كما أصدر أوامره الى ادارة البوليس السرى وادارة التفتيش بالقيام بحركة تطهير شاملة داخل الكليات والمعاهد العليا والجامعـــات وبوجه خاص بين الطلاب الذين سبقت تعبئتهم للعمل فى المزارع •

أما « ناديوتشكا » فقد أخبرت زوجها بأنها لاتحتمل ولا تطيق رؤية الطلاب الذين لم يرتكبوا جرما • وقد ضاقت بهم السجون أو واجههم الموت الزؤام أو النفى الى مجاهل سيبريا •

كذلك لجأت « ناديو تشكا » الى « آبل ينوكيدز » تطلب المساعدة ، مما أثار ثائرة ستالين الذى ساءه تدخل « ينوكيدز » · وأغضبـــــبه تأثر « ناديوتشكا » بالعناصر غير المسئولة التى يجب اجتثـاثها من جذورها · والقضاء عليها · بل لقد هدد زوجته بأنها اذا لم تكف عن دس أنفها فى الأمور التى لاتعنيها · فانه سوف يضطر الى اتخاذ خطوات قاسية ضدها ·

ولكن ســـتالين تحت ضغط « ينوكيدز » وسيرجو أوزونكيدز ، وبياتيكوف · وستانيسلاف «وليف · ميخائيل » · الذين كانوا قد عقدوا العزم على عرض الأمر على المكتب السياسى · اذا لم يعدل عن قسوته فى معاملة «ناديوتشكا» عاد فوعد بمصالحة زوجته ، والحقيقة انه عاد فسمح لها بالذهاب الى المدرسة بعد أن أكرهها على الانقطاع عنها ·

الفصل السابع

الاوجبيو « البوليس السرى »
وانتزاع الاعترافات الكاذبة

لم تستطع ناديو تشكا أن تخرس لسانها الذى أنطقه مقتها لعهد الارهاب الذى فرضة زوجها على الشعب الروسى . كذلك لم يستطع ستالين أن يخرس لسان خصمه الخطير تروتسكى . الذى كان فى ذلك الوقت قد نظم صفوف المعارضة فى الاورال وسيبريا واوكرانيا والقوقاز. كما أنه طلب من أنصاره أن يخلدوا للسكينة لفترة معلومة . وان يحاولوا كسب صداقة ستالين . لأن الحرب التى على الأبواب سوف تمكن اللينينية الحقيقية من انقاذ الوطن الأم الاشتراكى .

لكن زعماء المعارضة ومعهم المفكرون السوفييت الذين كانوا يعطفون على حركتهم . قد أوجسوا خيفة . وساورهم الشك فى أمر هذه الرسائل التى وصلت اليهم . وخافوا من أن تكون رسائل مزيفة أعدها الاوجبيو (ادارة البوليس السرى) كفخ لاصطيادهم . لذلك آثروا التصرف بحكمة. ونترك الحديث هنا الى (كانر) سكرتير ستالين الخاص الذى لخص الموقف بقوله :

لقد تعقدت الأمور بحيث لم يكن من الممكن تمييز الصديق المخلص من العدو اللدود . ولقد سلم « ساشا بلومكين » رجل البوليس السياسى المعروف ، رسالة الى « راديك » كتبها اليه تروتسكى من القسطنطينية ولكن « راديك » ساوره الشك فى أمر الرسالة وخشى أن تكون فخا نصبه له البوليس السياسى .

وفى هذه الرسالة كتب تروتسكى لصديقه قائلا :

(لقد سألتنى فى مقابلتنا الأخيرة بموسكو عن التكتيك الذى يجب أن تتبعه المعارضة وهأنذا أعرضها عليك :

ان ستالين رجل بلا مبادىء . وهو يعتقد أن مجرد ترأسه للحزب كفيل بتحقيق النصر للاشتراكية . ومن هذه الوجهة من النظر يعتبر مخلصا سيكلوجيا برغم أن تعطشه الى الحكم وتلذذه باساءة استعمال السلطة قد لعبا دورا كبيرا فى سوء سلوك هذا الستالين المعتوه .

ان السياسة الستالينية سوف تجلب الكارثة على الوطن ، وعلينا أن نغير هذه السياسة بالطريقة نفسها التى سلكها كليمنصو فى حرب عام ١٩١٤ حينما أراد أن يطيح بالحكومة الضعيفة التى سبقته .

على أن من الرفقاء الشبان من يذهب فى الرأى الى ضرورة التخلص من ستالين الى الأبد عن طريق القتل ولكنى لا أستصوب هذه الفكرة ٠

والواقع أن هذه الرسالة قد أفادت ستالين الذى كان قد أدركه التعب فى البحث عن طريقة لتوجيه ضربة لأعدائه ، وعلى ضوء ماورد فى الرسالة أعد ستالين خطته ٠ وان هى الا أيام قليلة حتى بدأ سلسلة من المحاكمات الصورية التى كانت تنتهى دائما بادانة المتهمين واعدامهم رميا بالرصاص ولكن هذه المحاكمات لم تكن سوى بداية أول برنامج ستالينى باسم مشروع السنوات الخمس للتطهير ٠

وتحت هذا المشروع استطاع ستالين ان يغربل قومسيرى الشعب كما تمكن من تطوير اساليب انتزاع الاعترافات الكاذبة من أفواه الأبرياء الذين كانوا يؤكدون للمحكمة ، تحت ضغط التعــــذيب والوعيد ، انهم مذنبون ، كذلك جرب ستالين تحت هذا المشروع طرقا من الدرجة الثالثة وهى استخدام « لعبة افقاد البصر » والتعذيب البدنى والضرب بالسوط والركل بالاقدام ٠ ووجد ستالين نفسه فى حاجة ماسة الى رجل صامت يمكن الاعتماد عليه كما تتوافر فيه صفات الذكاء ٠ وبعد بحث طويل عثر على ضالته المنشودة فى شخص « مالينكوف » المهندس الشاب الذى كان قد قابله لأول مرة فى قصر البحارة الحمر ٠ والواقع أن ستالين قد تحقق بعد عدة مناقشات مع « مالينكوف » وبعد عدة محاكمات صـــــورية أن الرجل كان جديرا بالثقة وأهلا لها ٠

ستالين يجند المرأة الروسية لمعرفة التصنيع :

كانت أزمة الايدى العاملة الماهرة أخطر مشكلة واجهت روسيا، لذلك فان اللجنة المركزية أقرت اقتراح ستالين بتعبئة النساء الروسيات لتصنيع الوطن ٠ ومع ذلك فان أزمة الأيدى العاملة الماهرة لم تكن مشكلة بسيطة يمكن التغلب عليها بمجرد تعبئة المرأة الروسية للعمل الصـــناعى ٠ لقد كان من الضرورى اجتلاب المتخصصين الاجانب لانجاح مشروع السنوات الخمس ، والواقع أن هذا القرار قد كان يعنى بكل بساطة المزيد من المتاعب والاعباء بالنسبة لرصيد روسيا من الذهب الذى كان قد أوشك على النفاد ومن الواضح أن الخبراء الأجانب لم يكونوا ليقبلوا مرتبـــاتهم وأجورهم المدفوعة الا بالعملات الصعبة والتمتع بالظروف المغرية ٠

غير أن ستالين استطاع أن يحصل على عدد كبير من العمـــال المهرة من مختلف الجنســـيات ، ومن مختلف البلدان ، مثل الولايات المتحـــدة

الامريكية وبريطانيا وفرنسا والمانيا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها من الاقطار والواقع أن الشعب الروسى قد شعر بادىء ذى بدء بأن التقدم الذى أمكن تحقيقه فى ميدان التعمير قد تجاوز ماكانوا يتصورونه ويتوقعونه • ومن هنا فان هذا الشعب قد صدق كل الاعلانات والتصريحات الرسمية بل لقد جعلها محل ثقة وايمان عميقين ، ولكنه عاد فأدرك أخيرا أن هذه التصريحات والاعلانات لم تكن سوى طلاء كاذب ، وكان من الطبيعى اذن أن أعلن الشعب استياءه وتذمره بعد اكتشاف الحقيقة المرة وفى غمرة هذا الاستياء والسخط وقعت اضطرابات خطيرة فى المناطق والأقاليم الزراعية ولم تفلح كل أساليب القهر والنفى والتشريد والاعتقال الستالينية فى اسكات جماهير الفلاحين التى تفجرت غيظا وضيقا بعد أن أنهكها الجوع وأنطقها البؤس والحرمان • فضلا عن المشاعر المريرة المليئة بالاسى والحسرة وخيبة الأمل •

ستالين يعلن الحرب على الدين :

تمخضت الجماعة وأسفر تدهور الظروف المعيشية • عن تزايد الوعى الدينى بين الشعب الروسى الذى أصبح يلتمس العزاء فى العقيدة ويشرئب متطلعا الى المعجزة التى تنقذه وتنتشله من براثن الجوع الذى لايرحم ، وتبعد عنه شبح الموت •

لكن ستالين ، كعادته دائما ، قرر أن يحرم الفلاح حتى من هذا الخيط الدقيق الذى تعلقت به أمانى الكادحين ، وأصدر مرسوما أقره سوفييت قومسييرى الشعب ، وبمقتضى هذا المرسوم أقفلت فى مدى عام واحد أبواب كل الكنائس والطوائف الدينية ، أما فى السنة الثانية فقد صفيت كل الخلايا الدينية وأبعد المتدينون من المناصب العامة والوظائف الحكومية ، كذلك حرم ستالين نشر أى كتب دينية • وتم اعداد نحو مائة وخمسين فيلما من الأفلام المعادية للدين لعرضها فى مختلف بلدان الاتحاد السوفييتى وبوجه خاص فى المدارس ودور التعليم •

أما فى السنة الثالثة من مشروع السنوات الخمس ، الذى أعده ستالين للقضاء على الدين ، فقد نظمت الجماعات والخلايا المعادية للدين ، وطرد من الاتحاد السوفييتى كل الذين رفضوا اطاعة أوامر هذه الجماعات والخلايا • وبعد ذلك كانت الخطوة الرابعة التى تضمنت تسليم كل الكنائس ومجمعات الطوائف الدينية الى مجالس السوفييت المحلية ، وذلك لاستخدامها كدور لعرض الافلام المعادية للدين • أو كأندية يمكن للشبان فيها أن يقضوا أوقات الفراغ بطرق مفيدة •

وتبقى بعد ذلك السنة الخامسة والأخيرة وهى التى كرست لتقوية وحماية المكاسب والانتصارات فى جبهة الحرب ضد الدين ٠ ومحو أية معتقدات أو أفكار عن وجود قوة خفية اسمها الله ٠

بيد أن ستالين كان يعلم أن المرسوم الذى أصدره ، بالاضافة الى ضغط الحزب وجهود رجال « الجبيو » لاتكفى لتأكيد نجاح مشروع السنوات الخمس للقضاء على الدين ، ولذلك فانه فى أوامره الى قومسيير الشعب لشئون التعليم أوضح الآتى :

ان نظام التعليم الحالى لايكفى للحد من الانحلال الخلقى وفساد آداب الشبان ٠ ولذلك فقد تقرر استخدام علم الأخلاق ٠ بدلا من العلوم الدينية ٠

كذلك كلف اساتذة الآداب بوضع المؤلفات الضخمة والصغيرة عن الاخلاقيات الشيوعية ٠ لتدريسها فى المدارس الابتدائية والثانوية ، فضلا عن الكتب الدراسية الاخلاقية لارشاد الآباء ٠

ولكن مشروع السنوات الخمس الذى وضعه ستالين لهدم الدين أدى الى تزايد السخط وظهور التمرد ٠ خصوصا فى (أوكرانيا) التى اشتهرت بتحمسها للدين وغيرتها عليه ٠ ومع ذلك فان رجال البوليس السرى كانوا على أتم استعداد وسرعان ما قتلت الثورة فى مهدها بدون أى جهد أو مقاومة ٠ وهكذا تخلص ستالين من الثورة التى كادت تندلع فى روسيا وكان من الممكن بعد ذلك أن ينعم ستالين براحة البال وهدوء الفكر لولا زوجته « ناديوتشكا » التى أعلنت الحرب ضد زوجها ، اذ اعتبرته المسئول الأوحد عن جرائم الوحشية والارهاب ٠ ونشر التقارير الكاذبة عن الانتصارات الوهمية والمكاسب التى لاوجود لها الا على الورق ٠

بل ان رجال حرس الكرملين وبعض أعضاء الجبيو ٠ كثيرا ماشاهدوا مشاجراتهما وبرغم أنهم كانوا يعبدون الحزب بدلا من الله الا أنهم لما رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم ٠ وجدوا أنفسهم وقد أصبحوا أشد ميلا وأكثر عطفا على « ناديوتشكا » كما انهم احبوا فيها طبيعتها الهادئة وصداقتها ٠ فضلا عن شعور عميق بالاشفاق عليها وهى تبكى بحرارة ٠

ستالين يقتل ناديوتشكا :

في احدى ليالي صيف اكتوبر . سمعت « ناديوتشكا » في أثنـــاء وجودها في حفل موسيقى حضره معها زوجها ستالين . أن أحد زملائهــا في الدراسة قد أودع السجن وصدر الحكم ضده بالاعدام رميا بالرصاص. وبمجرد عودتها الى المنزل طلبت منه أن يصدر أمره باطلاق سراح الطالب والعفو عنه . ولكن الزوج ، الذى أثارته وقاحة الزوجة انفجر في وجهها غاضبا وعنفها على جرأتها في مخاطبته ، فما كان منها الا أن صاحت في وجهه وهي في ذروة غضبها وثورتها :

انك تعذب ابنك الذى من لحمك ودمك . وها أنت تعذب زوجتك انك اليوم تعذب الشعب الروسي كله وتقلبه على الجمر . انني ذاهبة عنــك سواء رضيت بذلك أو لم ترض . وأجاب ستالين بصوت رصين هادىء كعادته حينما كان يضمر الشر : أنت منهوكة « مضــطربة الأعصــاب » قالها ثم توجه الى حجرته الخاصة كي يحضر شرابا لها . ومرة ثانيـــة وبصوت أكثر هدوءا ورصانة أردف قائلا :

« اشربي هذا الكأس وستصبحين هادئة الأعصاب » .

ومرت دقائق قصيرة طويلة . سمع بعدها صوت ارتطام جسم عــلى الأرض واندفع رجال الحرس الخاص الى داخل مسكن ستالين على صوت الزجاج الذى تهشم فوجدوا « ناديوتشكا » جثة هامدة .

على أن سبب الوفاة ، وان كان قد كتم عن الشعب في بداية الأمر الا أن الشائعات قد انتشرت فيما بعد على أن وفاة « ناديوتشكا » كانت بسبب حادث تصادم سيارة أو بسبب تسمم جسمها نتيجة لانفجـــار الزائدة الدودية فجأة . وبعد ذلك ظهر ستالين وهو يحكي قصة المرض اللعين الذى طالما هاجم زوجته وفشل الطب الحديث في التغلب عليه !

وأخيرا شيعت جنازة « ناديوتشكا » رسميا . حيث دفن جثمانهــا في مقبرة جديدة بجوار الزوجة الأولى للقيصر بطرس الأكبر وبالقرب من مقابر النبلاء الروس القدامى .

أما ستالين فقد هرع ، بعد دفن زوجته ، الى « شلة اللعب » يرقص ويمرح ويضحك من الأعماق وكأن شيئا لم يحدث . ان الرجل الفولاذى لم يجد من وقته ما يتسع للبكاء على شريكة حياته الراحلة ، ومع ذلك فقد وجد وقتا لاغراء فتاة جميلة شابة كانت تعمل كاتبة في اللجنة المركزية على مرافقته الى منزله حيث أمضى معها ليلة حمراء !

الفصل
الثامن

ستالين الذى نجح فى فرض حكمه على دولة كاملة ، يفشل فى أن يكون ربا لعائلة !

كان فاسيلي جوزيفوفتتش أكبر أبناء ستالين من « ناديوتشكا » طفلا ذكيا بشهادة مدرسيه ومع ذلك فقد كان خاملا يكره الاطلاع والقراءة ويميل بشكل غير عادى الى كل شيء ميكانيكى . مما جعله يقضى جل وقته فى مراقبة العمال وهم يصلحون السيارات داخل « جاراج » الكرملين .

وما ان أشرف الصبى على عامه الخامس عشر حتى كان قد أصبح ـ ومن شابه أباه فما أظلم ـ زير نساء لم تسلم من أذاه أية كاتبة من كاتبات الكرملين ولما شكته زوجة أبيه « روزا » أجاب ستالين وكأن الأمر لايعنيه: « دعيه وشأنه لأن الشباب له فتوته وطيشه » .

وهكذا أمضى « فاسـيلى » الأعوام الأولى من شبابه فى جو ملىء بالمغامرات ومطاردات الموظفات . حافل بالمتعة الجسدية والليالى الحمراء حتى شب عن الطوق فألحقه والده بسلاح الطيران السوفييتى . كى يتدرب على العمل كطيار . واجتاز « فاسيلى » فترة تدريبه فانضم الى سلاح الطيران وظل يتدرج فى المناصب العسكرية حتى أصبح قائدا للقوات الجوية بموسكو فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

أما « سفيتلانا جوزفيفنا » ابنة ستالين من زوجته «ناديوتشكا » أيضا فقد كانت صورة طبق الاصل من أمها فضلا على أنها ورثت عنها قدرا كبيرا من دماثة خلقها وصفاء طبعها . والواقع أن ستالين كان يؤثرها بحبه ويشملها بحنان ورعاية لم يجدها أى ابن آخر . وظلت هى على حبهـا لوالدها حتى كانت احدى الليالى حينما التقت مع « الـكسيزكابلر » الطالب الشاب الذى خفق قلبها بحبه من أول نظرة . فلما سمع ستالين بأمر هذا الشاب عنفها وأغلظ لها القول كما منعها من مقابلته . فضـلا عن اصداره أمرا الى « قومندان » الأمن بالكرملين . بمنع أية مقابلات سرية بين العاشقين . المراهقين . أما « كابلر » فقد نقل من موسكو ولم يعرف أحد بعد ذلك ماذا حدث لهذا الشاب الذى لم يرتكب جرما سوى أن ابنة

ستالين قد أحبته . والواقع أن « سفيتلانا » لم تغفر لوالدها هذه الوحشية ولم تستطع أن تنسى قسوته عليها وعلى حبيبها الذى اختفى .

ستالين لاينجح كرب عائلة :

أيا كانت صفات ستالين الأخرى . فانه لم يكن يوما . رب أسرة ، فلقد كان ستالين . هو ستالين .. الذى وان أظهر الحب لزوجاته والعطف على أبنائه والاخلاص لأصدقائه والهيام بعشيقاته الا أنه كان دائما ستالين الأنانى الذى لا يفكر الا فى نفسه والذى يحب بقدر ما يستفيد . ويشتاق حينما يريد . ولذلك فقد كانت عواطفه تنتهى بانتهاء حاجته منها.

كذلك لم يكن ستالين بالابن البار . الذى يرحم شيخوخة أبويه اللذين كاد أن ينساهما نسيانا تاما لولا أن والدته كانت تضايقه بين الحين والحين بالسؤال عنه والاطمئنان عليه .

وحينما كان ستالين فى احدى زياراته لتفليس فى أثناء سنوات المجاعة الستالينية حاولت أمه أن تنتهز الفرصة النادرة وترى جوزيف ، أو صغيرها « سوسو » ولكن سوسو . رفض مقابلتها بحجة ضيق وقته ولم يقبل رؤيتها الا بعد محاولات مضنية قام بها (آبل ينو كيدز) رفيق الصبا وصديق الشباب الذى ألح عليه أن يرحم شيخوختها . وأخيرا وبعد أخذ ورد سمح لوالدته بمقابلته وما ان رآها حتى انفجر فى وجهها صائحا : كان يجدر بك أن تبقى بالمنزل . لأن مقر الحزب ليس مكانك .

وبعد أن هدأت ثورته اصطحبها معه الى المقصف حيث تناولا الغداء معا وحيث حذرها من مناقشة المسائل الدينية والسياسية معه . وبعد ذلك نهض ومعه والدته ومرافقاه « ينوكيدز » و « ميكليس » حيث هبطوا الدرج فى طريقهم الى الطابق الأرضى . وفى أثناء هبوطهم زلت قدم المرأة العجوز لولا أن امتدت اليها يد بسرعة كى تقيل عثرتها . ولكن هذه اليد لم تكن يد ستالين بل كانت يد « مكليس » الذى أمسك بها بشدة وأنقذها من السقوط . واكتفى ستالين بأن حدج أمه بنظرة كلها اهمال وعدم مبالاة ومع ذلك فان قلب الأم هو قلب الأم دائما . فقد ظلت الأم على تلهفها لتتبع أخباره والسؤال عنه فى كل الخطابات التى كانت ترسلها الى

أصدقائه مثل « كالينين » و « كامينيف » ولكن الرد الوحيد الذى رد به عليها ستالين كان رسالة تقع فى نصف سطر كتب فيها « كفى مضـايقة للناس . واقلاقا لراحتهم » ومرت الأيام .. على الأم التى أحبت ابنهـا بقدر قسوته عليها واهماله اياها . حتى كان يوم بلغه فيه خبر وفاتهـا فما كان منه الا أن أمر بدفنها طبقا لتقـاليد الـكنيسة الاورثوذكسية الجيورجيانية فى « جورى » واكتفى من الحزن عليهـا بارسال اكليل من الزهور . لأنه لم يجد متسعا من الوقت كى يحضرتشييع جثمان أمه ، التى كفت الى الأبد عن مطاردته للاطمئنان عليه ، أو مضايقة أصدقائه بالسؤال عنه وتتبع أخبار صحته .

الفصل التاسع

الجريمة والعقاب

على أننا لن ندهش اذا رأينا ستالين غير مهتم بأسرته مهملا اياها ٠ فقد كان الرجل مأخوذا عن حياته العائلية بالتفكير فى الخطة التى تمكنه من تأكيد سلطته وفرض كلمته على الكرملين واحتفاظه بالسوط الذى يلهب ظهور جماهير الشعب الروسى ٠

ومع أن الحزب قد استخدم اجراءات جدية ، ان لم تكن متطرفة ، لاجبار الشعب على مضاعفة جهوده ٠ الا أن روح السخط والتذمر قدتفشت بسبب الأزمة المزمنة فى المواد الغذائية والفحم والملابس وظروف الاسكان وغيرها من ضرورات الحياة ٠ كما أن قطاعات كبيرة من الشعب كانت تتمنع عن الذهاب الى العمل الا حينما تشعر برغبتها فيه ٠

ومن هنا فقد كان لابد من البحث عن وسيلة فعالةلاجبار هذا الشعب على الكد وبذل الجهود والعرق ٠ لذلك تقرر اعادة النظر فى نظام توزيع الطعام ٠ واتبعت طريقة توزيع بطاقات الطعام ٠ داخل المصانع والمكاتب الحكومية ٠ أما الذين لاعمل لهم فلم توزع عليهم بطاقات الطعام ٠ فضلا على أن ستالين نفسه قد قرر أن يعيد تنظيم صفوف الحزب وأن يجرى بين الأعضاء حركة تطهير واسعة النطاق ٠

لكن حركة التطهير فى هذه المرة ٠ كانت أقسى بكثير من حركة التطهير الأولى ، لأن ستالين اعتبر أن مجرد معارضة الأقلية مؤامرة خطيرة يجب ضربها والقضاء عليها ٠ وكان قداتخذ قراره بألا يسمحلأحد بالوقوف فى طريقه أو التآمر عليه ٠ لذلك فقد كان ضحايا هذه الحركة الثانية نحو ٢٦٠ر٠٠٠ عضو من جملة الأعضاء البالغ عددهم ١ر٣٠٠ر٠٠٠ عضو وهؤلاء الذين شملتهمحركة التطهير أبعدوا وطردوا من الاتحاد السوفييتى٠

لكن ستالين لم يكن ليقنع بمجرد الطرد والنفى فقرر أن يبدأ سلسلة من المحاكمات الصورية أو القتل بالجملة وبدون تقديم للمحاكمة ٠ وفى هذه الحركة الدموية لقيت المئات حتفها داخل سجون البوليس السياسى كما ضاقت معسكرات السخرة ومجاهل سيبريا بالذين صدرت ضدهم أحكام أو أدينوا بتهم معينة وكان على ستالين بعد ذلك أن يبحث عن عقاقير مخدرة لتخفيف آلام الشعب ٠ كما كان عليه أنيبحث عن كبش الفداء ٠

لذلك فقد حاول أن يتملص من الجريمة ويلقى حبل اللوم على العناصر

غير المسئولة التى حاولت ، ان لم تكن قد أتلفت الواجهـــة الاشتراكية الحقيقة ، وتحت ستار هذه الحجة أصدر ستالين أمره بطـرد قوميسيز الشعب لشئون‌التموين ، من الحزب ، كما فعل الشيء نفسه مع «تولوشوف» القوميسيز السابق الذى كان مسئولا عن آلات الاحتراق الداخلى ٠٠وذلك بعد تلفيق الاتهامات لهما بالعمل على تنظيم جماعة سرية كانت تستهدف عرقلة تصنيع الاتحاد السوفييتى واعادة النظام الرأسمالى الى البلاد ٠

والحقيقة أن ستالين كان موفقا ٠ اذ أن الشـعب مالبث أن استسلم لتأثيرات‌مناشط الحزب الدعائية ٠ كما بدأ يعتقد أن البؤس الذى ران على حياتهم انما يعزى الى المخربين ٠ ورأى ستالين أن اللعبة قد نجحت فخرج على الشعب يبشره «بانهيار الرأسمالية العالمية» ويعلن أن المانيا هى الدولة الأولى التى سوف تخلص نفسها من أخطبوط الرأسمالية ٠

على أن ستالين لم يكن يعلم فى هذه اللحظة أن القدر قد أعد له مفاجأة غير سارة ٠ وبعد عشرين يوما فقط ظهر « هتلر » على مسرح الأحـــداث الالمانية وكان ظهوره ضربة عنيفة لا لستالين وبوليسه السياسى فحسب بل للاتحاد السوفييتى كله أيضا ٠

ستالين يرفع شعارات للاستهلاك المحلى :

لم يستسلم ستالين لضربة القدر ٠وانما هرع الى الشعب مرة أخرى وقد رفع شعارات جديدة مثل (احـــــذر الجواسيس الاجانب ٠ وحارب المخربين والمتسللين) بل ان ستالين لم يقنع بهذه الشعارات التى وجدها غير كافية فطلب الى رفقائه أن يظهروا للشعب واقعة مادية ملموسة ومثالا حيا يثبت للشعب وجود مثل هؤلاء المخربين والجواسيس وكان الرفقاء على أتم استعداد ، وان هى الا أيام قليلة حتى كان كل شيء قد أعد لمحاكمة ستة من الموظفين البريطانيين فى شركة « متروبوليتان ـ فيكرز » الذين لفقت لهم تهمة ممارسة التجسس والتخريب وتقديم الرشاوى ، بالاشتراك مع تسعة من الروس ، لصالح الدول الاستعمارية ٠

وبرغم كل الاحتجاجات من وزارة الخارجية البريطانية ٠ أصدرت المحكمة السوفيتية حكمها بادانة المتهمين ٠ ومع أن ستالين كان موفقا فى اصطياد كباش الفداء ٠ وفى التذرع بالاعذار ٠ الا أنه وجد نفســه وقد حوصر من جميع الجهات بشبكة من المتاعب والمشاكل ٠ ذلك أن الموقف‌فى الشرق الأقصى قد تدهور تدهورا خطيرا فى حين تجمعت حشود قوية من قوات « منشوكو » بالقرب من الحدود الصينية وفى الوقت نفسه نقلت

وكالات الأنباء أخبارا عن الاستحكامات والقوات اليابانية التى كانت قد تحركت فى اتجاه الحدود السوفيتية ٠

أما ستالين الذى استشعر خطر الحرب ضد اليابان ٠ والخطر الهتلرى فى المانيا ٠ فقد قرر أن يزيد اجراءات الأمن فى داخل الاتحاد السوفييتى عن طريق تعميم قانون « تصاريح » الانتقال الداخلى الذى كان متبعا فى موسكو وحدها وعلى الفور ٠ تم التوسع فى تنفيذ هذا القانون الذى امتد الى ليننجراد وخاركوف وغيرهما من المدن الكبيرة ٠ وذلك بقصد وضع حد لتكدس السكان فى هذه المدن ذات الكثافة السكانية العالية ٠

كذلك أصدر ستالين توجيهات تقضى بالتوسع فى استخدام قانون تصاريح الانتقال الداخلى ٠ بحيث يغطى المدن الـــكبرى الأخرى والمدن الاستراتيجية بقصد ابعاد ايدى المخربين وأعين الجواسيس عن هذهالمناطق الحيوية ٠ والذى لا ريب فيه أن ستالين الذكى كان بارعا فى هذه المرة أيضا لأنه عرف كيف يشغل أذهان الشعب بطرق مكافحة الجاسوسية فصرفه بذلك عن التفكير فى مشاكل الانسان وأزمة الطعام وأسكت عواء المعدات الخاوية بحيلة كانت بارعة ٠

على أن ستالين وان كان قد نجح فى صرف الأذهان عن التفـــكير فى المجاعة التى ضربت أطنابها فى الاتحاد السوفييتى الا أنه لم ينجح فى اخفاء هذه الظاهرة المؤلمة على العالم الخارجى الذى وان لميكن ملما الماما كامـــلا بمعالم الجريمة الستالينية غير أنه كان يعلم أن نحو ستة عشر مليونا من أبناء الدولة السوفييتية يكابدون من اعتلال الصحة بسبب نقص الغذاء ٠ أما البقية الباقية التى كتب لها البقاء فانها تعيش على ما تأكله من الحيوانات والنباتات المحلية ٠ أو هى تضطر اضطرارا الى أكل لحوم البشر ، كى تقاوم الموت من الجوع ٠

أما الزعيم السوفييتى الوحيد الذى شعر بالمسئولية عن موت الملايين الأبرياء فقد كان « نيقـولا الـكسبنيش سـكرينبك » الذى كان من كرام البلشفيك القدامى ٠ والذى كان عضوا فى لجنة اكتوبر المركزية ٠ وعضوا فى لجنة الثوريين العســـكريين ٠ وأحد مؤسسى جمهـــورية أوكرانيا السوفييتية ٠

ولما بلغ « سكرينبك » عامه الحادى والستين انتحر٠على أمل أن تكون تضحيته بحياته حافزا لستالين على أن يجتهد فى البحث عن الأسباب ٠ ولذلك فقد كتب الرجل وصيته على شكل خطاب مطول الى اللجنة المركزية

اقترح فيه على ستالين · أن يتخلى عن سياسة القبضة الحديدية·وأن يحاول التفاهم مع الفلاحين · وبذلك يمكن للشعب السوفييتى أن يملأ المعدات الخاوية مرة ثانية · لكن انتحار « سكرينبك ؟ لم يحرك شعرة واحدة فى رأس ستالين الذى رفض ، ومن ورائه البوليس السياسى ، أى انحراف عن الطريق الذى اختاره وهكذا أسدل الستار على قصة انتحار « سكرينبك »

على أنه قد يكون من قبيل المصادفة وحدها أن لاحت بعد ذلك بوادر احتمالات تخفيف المشاكل السوفييتية ·

ولقد تجلى ذلك فى الاعلان الذى أصدرته هيئة التعمير الامريكية من نيويورك بأن الرئيس الامريكى قد وافق على منح قرض ضخم يتراوح بين ثلاثة ملايين وأربعة ملايين دولار للاتحاد السوفييتى ، وذلك لشراء نحو ٧٠٠٠٠ر٧٠ بالة قطن · وبعد ذلك بقليل أعلن ستالين أن العمل قد تم فى قناة بحر البلطيق وحينما أصبح هذا الممر المائى الذى بلغ طوله ١٤٢ ميلا تم نحتها فى الصخور الصلدة معدا للاستعمال · أعلن ستالين أنه يستطيع اليوم أن يفخر ومعه الشعب السوفييتى كله بهذا الانتصار الكبير ·

ومنذ هذا اليوم بدأت عظمة ستالين فى تغطية عظمة ماركس ولينين كما أصبحت الستالينية اللينينية · الواجهة الرسمية للتكتيك الستالينى وبزغ نجم ستالين الذى لقبوه بأب الشعب السوفييتى · وابن الاشتراكية والزعيم المحبوب ، والمعلم الأول ·

لكن هذا الحماس كان مقتصرا على الجيل الصاعد·والسوفييت الشباب وحدهم · أما البلشفيك القدامى فقد ظلوا على عداوتهم التى لم تخف حدتها ان لم تكن قد زادت كثيرا · ولذلك فان قادة هذه الحركات الذين أصدروا منشورات ينتقدون فيها ستالين ويطالبون برميه بالرصاص ، سرعان ما اكتشفوا بواسطة « الجبيو » الذى تولى بنفسه مهمة تأديبهم واسكاتهم الى الابد · وفى خضم حركة التطهير الدموية خرج « سيرجى ميرونوفتش كيروف » عضو المكتب السياسى وسكرتير الحزب عن دائرة لينينجراد · معلنا : ان هؤلاء المنحلين والعملاء أذناب الدول الاجنبية · يجب أن يختفوا من حياتنا الى الابد ·

ثم أردف الرجل قائلا : انه من رأفة الأقدار بنا أن أرسلت الينا رجلا مثل ستالين العظيم · الثائر العبقرى · المفكر الالمعى · الذى شيد الاشتراكية · ان ستالين هو كل آمالنا · انه استاذنا المحبوب والمعلم

الأول للعمال فى كل بلد من بلدان العالم • وعلى ذلك فقد حق الموت على كل الذين سولت لهم أنفسهم أن يعرقلوا سير الموكب •• موكب النور •

ثم لكى يدلل الرجل على صدق عواطفه ولكى يظهر ولاءه الذى لامزيد عليه قام على الفورَ بالقاء القبض على تسعة عشر رجلا من رجال الحزب فى دائرة لينينجراد • بعد أن لفق لهم تهمة الانتماء الى المعارضة • ثم أتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى استعمل فيها معلوماته الجغرافية عن موقع لينينجراد التى تجاور الجبهة الفنلدية فألقى القبض على بعض الأشخاص الذين وصفهم بقوله : انهم جواسيس يعملون لحساب فنلنده • ثم أتبع ذلك بتنفيذ حكم الاعدام فيهم جميعا •

ومع ذلك فان كل هذا لم يكن ليهدىء من روع ستالين الذى وقع تحت وطأة الخوف المستمر من هجوم اليابان وانقضاض من ألمانيا النازية• لذلك فقد قرر أن يخفى هذا الخوف وراء التظاهر بالقوة واستعراض العضلات ومن هنا فقد كلف « ليتيفينوف » قوميسير الشعب للشئون الخارجية بانذار اليابان بأن الاتحاد السوفييتى لن يتردد فى شن الحرب اذا لم تدفع ثمنا مناسبا مقابل سكة حديد الصين الشرقية • والواقع ان هذه الحركة الستالينية قد حققت غرضها ، فأظهرت للشعب السوفييتى ولشعوب دول العالم أجمع ان الاتحاد السوفييتى يقف على أهبة الاستعداد لمواجهة كل التحديات وان قوة السوفييت تزداد يوما بعد يوم •

ستالين يبدأ أكبر حركة تطهير عرفها الشعب السوفييتى :

كان نجاح ستالين فى الظهور بمظهر القوة أمام الشعب وأمام العالم أجمع ، حافزا دفعه الى تنفيذ خطته الجديدة « لتنظيف الاتحاد السوفيتى » وتحت هذه الخطة شن ستالين حركة التطهير الدموية ، ضد الشعب السوفيتى ، وفى الوقت نفسه ضد الاجانب الذين يعملون فى الاتحاد السوفيتى ، وأقوى مثال على ذلك أن ستالين قد ألقى القبض على جميع موظفى الشركة السويسرية بكامل فروعها وهيئاتها فى موسكو وفى « نوفوسبيرسك ، وبوتى ، وباطوم ، وغيرها من الموانى السوفيتية على البحر الأسود • وقد وجهت الى هؤلاء الموظفين السويسريين تهمة التجسس وممارسة النشاط التخريبى والخيانة ومع أن هذه الاتهامات كانت مزيفة وملفقة الا أن ستالين أصر على ارسالهم للمحاكمة •

أما حركة التطهير التى شملت صفوف الحزب وزعامته فقد بلغت أشدها فى الشرق الأقصى السوفيتى ، وسيبريا الشرقية والأورال وصوامع

الغلال فى أوكرانيا ، وفى موسكو ولينينجراد ، وغيرها من المدن الصناعية فى روسيا الأوروبية . وأخيرا صدر البيان الرسمى الذى أوضح أن أحكام النفى قد صدرت ضد :

١ر٢٤٪ من المنفيين لم يظهروا حماسة كافية للبلشفيك .

٢١٪ من المنفيين ، ثبتت عليهم تهمة خرق نظام الحزب وتعاليمه .

١٦٪ من المنفيين الذين اعتبروا من اعداء الشعب .

٨ر١١٪ من المنفيين أدينوا بتهمة الانحلال وفساد الأخلاق .

٨ر٨٪ من المنفيين ، كانوا فى طريقهم الى البورجوازية .

٨ر٥٪ من المنفيين كانوا متهمين بخراب الذمم والانتهازية واستغلال صفوف الحزب .

وقد أرسل معظم هؤلاء المنفيين الى معسكرات العمل الاجبارى أو الى مجاهل سيبريا ،والمناطق القطبية ، أما التعساء فقد لقوا حتفهم فى زنزانات سجون البوليس السرى .

ولـكن جبهة المعارضة استمرت ، على الرغم من كل هذه القســوة واحكام السجن والنفى والطرد والتشريد والاعدام ، فى ممارسة نشـاطها وعهد الارهاب والاستبداد الذى أقامه ستالين .

وكان ذلك عذرا وجيها تذرع به ستالين لتبرير « المجزرة » التى قرر أن يقيمها لمعارضيه وفى هذه المجزرة طارت رءوس كثيرة وضاقت السجون بالمعتقلين ، كما صدر الحكم بنفى « زينونييف » و « كامنتيف » لمدة خمس سنوات بعد ادانتهما بتهمة تدبير مؤامرة لقلب الحكومة وفى الوقت نفسه استطاع سيرجى ميرونوفتش كيروف سكرتير الحزب عن دائرة لينينجراد أن يكشف مؤامرة دبرها رئيس الحكومة المحلية وتم تنفيذ الحكم بالموت فى ٥٦ عضوا من رجال الحزب ، وبعد ذلك تمكن « كيروف » من احراز نصر كبير على اعداء ستالين وذلك حينما أسفرت تحرياته عن حقيقة خطيرة هى أن رئيس ادارة البوليس السرى فى الأورال كان زعيما للمعارضة كما طبع منشورات سرية فضحفيها أعمال البوليس السرىوخططه ، وانتهت سلسلة التحريات التى قام بها « كيروف » باعدام ٣٥٠ شخصا رميا بالرصاص .

ومع ذلك فان « كيروف » ما لبث أن قتل بيد « نيكولاييف » قائد قوات البوليس السرى ، وبعد هذا الحادث بقليل أعلن الشــعب صراحة

تمرده ، بسبب الظروف المعيشية التى لم تعد تحتمل ، كما شبت الثورة فى « كييف » و « خاركوف » حيث اندفعت الجماهير الجائعة الىمخازن الطعام واستولت على محتوياتها عنوة وفى الوقت نفسه كانت المظاهرات تطوف شوارع « فلاديفوستوك » حيث طالب الشعب بتحسين الظروف المعيشية ، وظروف العمالة ، كما طالبوا برفع الأجور وتخفيض أسعار المأكولات والملابس • وما لبثت حركات التمرد المماثلة أن انتشرت فى ربوع الاتحاد السوفييتى كله •

أما ستالين فانه مع تحققه من أن هذه التمردات والثورات لم تشتعل بأيدى زعماء المعارضة ، الا أنه أصدر أوامره بتصفية البقية الباقية من مراكز المعارضة ولكنه آثر الابقاء على بعض الأفراد لأنه خشى أن يستبد اليأس والأسى بالجماهير فتحاول الاطاحة به •

غير أن ستالين أراد أن يستغل حادث قتل صديقه « كيروف » فتذرع بهذا العذر كى يشن حملة تطهير دموية أشد قسوة وأكثر ردعا • وهكذا أصدر ستالين تعليمات مشددة الى بوليسه السرى لضرب المعارضة ضربة لا تقوم بعدها ، ويكفى أن نعلم فى هذا الصدد أن لينينجراد وحدها قدمت من سكانها نحو خمسمائة رجل أعدموا رميا بالرصاص •

ومع ان « يوجودا » أدى واجبه ونفذ تعليمات الكرملين بالحرف الواحد الا أن ستالين لم يثق فيه ، لذلك فانه كلف « نيقولا ايفانوفتش بيزوف » بمهمة « تنظيف البوليس السرى » وغربلة رجاله ، وتحت هذه الحركة أجريت عمليات الاعدام بالجملة وتلطخت قضبان زنزانات سجون البوليس السرى بدماء الضحايا الذين كان من بينهم بعض رجال البوليس السرى وأعضاء الحزب والفلاحين الأبرياء •

لكن ستالين الذى كان يطمح فى ابادة المعارضة ابادة تامة لم يكن ليقنع بحركات التطهير والتصفية البسيطة ! لذلك شعر بضرورة الاعترافات الكاذبة من أفواه « زينوزييف » و « كامنييف » وغيرهما من الزعماء البلشفيك ، كذلك شعر بضرورة اعترافهما بالتآمر وتدبير النشاط غير المشروع ، والشروع فى قلب الحكومة « ولما عرض ستالين الخطة على رجال البوليس السياسى ، أقره عليها « كاجانوفتش » ومولوتوف ، واعلنا أنها « ضربة معلم » ولم يعترض على هذه الفكرة سوى « آبل ييفوكيوز » و « سيراجو اورزونيكيدز » وهما من أصدقاء ستالين القدامى ، ومع ذلك فان ستالين لم يهتم باحتجاجهما وبذلك تمت المحاكمة المعروفة باسم محاكمة التسعة عشر ، ووجهت الاتهامات الى « زينوفييف » و « كامينييف » بالعمل

على اعادة الرأسمالية وتدبير مناشط عامة معادية للثورة فضلا على اتهامهما بتدبير قتل « كيروف » وانتهت المحاكمات الصورية بصدور الحكم ضد المتهمين جميعا بالسجن مددا طويلة ٠

كذلك تمت محاكمة ضباط البوليس السرى الاثنى عشر وصدر الحكم ضد « ميدفييف » وغيره من كبار ضباط البوليس السرى بالنفى ، لفشلهم فى منع اغتيال « كيروف » وبعد عدة شهور اعيد التحقيق مع « كامنييف » وقدم للمحاكمة السرية كما حوكم ثلاثون شخصا وصدر الحكم برفع مدة النفى الى خمس سنوات فى حين ارسل الاشقياء الثلاثون الى السجن لمدد مختلفة ٠

على أن هذه المحاكمة السرية لم تكن الا بداية سلسلة المحاكمات السرية الأخرى التى عقدت فى كل المناطق الروسية تطبيقا للسياسة الستالينية التى وضعها للقيام باجراءات قمع متطرفة كان ضحيتها ـ بحسب التقديرات الرسمية التى وجدت فى ملفات البوليس السرى السوفييتى ١٠٧٤ من الضباط السابقين ، والارستقراطيين السابقين والموظفين الذين ألقى القبض عليهم وأدينوا بتهمة تدبير النشاط المعادى للسوفييتية والعمل كأذناب للدول الأجنبية ٠ وقال ستالين فى تبرير ذلك : « ان احدى الوظائف الرئيسية لكل سلطة سياسية هى القمع » على أن كل ذلك لم يكن الا البداية فقط لأن ستالين كان قد صمم على الحصول على الاعترافات بأى ثمن وهو يعلم أن « زينوفييف » و « كامنييف » من العناد والصبر على المكاره بحيث لا تنطقهما ابشع طرق التعذيب البدنى داخل زنزانات البوليس السرى ٠

وفكر ستالين فى طريقة جديدة للتنكيل بالخصمين العنيدين ، وهداه تفكيره الى الاستعانة بالعلم ٠ لأنه كان فى مسيس الحاجة الى عقاقير تؤثر على عقول الضحايا وتسلبهم اراداتهم وتكون أقوى مفعولا من «الاسكوبولامين» الذى استعمله « هتلر » من قبل فى المحاكمة التاريخية المعروفة باسم « محاكمة الريشستاج » ٠

وأخيرا ، وبعد عمل متواصل ، تمكنت معامل الأبحاث من اجابة طلب ستالين ، وان هى الا ساعات حتى كان سجن « ليفرتوفو » قد تحول الى حقل تجارب لمعرفة مفعول العقار الجديد وأثبت العقار نجاحا منقطع النظير فأعلن ستالين أن ساعة العمل قد دقت لعقد المحاكمات العلنية التى لايجرؤ أحد على الطعن فى أحكامها بعد سماع الاعترافات تترى من أفواه الاشقياء بعد سبلهم ارادتهم وقواهم العقلية ٠

وقد كان « فالنتين أولبرج » رجل البوليس الســـياسى الذى كان نروتسيكيا ألمانيا أول ضحية من ضحايا الطريقة الجديدة · أما الضحية الثانية فقد كان «اسحق راينجولد» عضو هيئة قوميسيرية الشعب للشئون المالية والواقع أن اسحق راينجولد قد أنكر فى بداية الأمر اشتراكه فى أى مؤامرة ولكنه عاد فاعترف ، بفضل العقار المدهش ، أنه كان عضوا عاملا فى « منظمة تروتسكى ـ زينوفييف » وانه قد دبر مؤامرة لاغتيال ستالين اشترك معه فى تدبيرها كامنييف وزينوفييف وباكييف والكسى ايفانوفتش ريكوف » الرئيس السابق للحكومة السوفيتية ، وبعض الأعضاء السابقين فى المكتب السياسى ·

أما الضحية الثالثة فقد كان « ريتشارد بيكل» الذى كان يعمل مديرا لمسرح « كاميرنى موسكو » والذى لم يكن مهتما بشئون السياسة ، ومع ذلك فانه اضطر ، تحت تأثير العقار العجيب ، ان يوقع على الوثيقة التى كانت قد أعدت سلفا ، معترفا بأنه قد تلقى تعليمات خاصة من «زينوفييف» لتدبير اغتيال ستالين ·

وهكذا استطاع ستالين ، بفضل طرق مماثلة أن يحصل على اعتراف من « جولتزمان » رجل البوليس السرى ، صرح فيه بأنه قد تقـــابل مع « سيدوف » ابن تروتسكى فى فندق بريستول بكوبنهاجن ، حيث اتفق معه ، بحضور تروتسكى نفسه ، على وضع خطة لقتل ستالين ·

ثم تحول ستالين بعد ذلك الى معاونيه من رجال البـــوليس السرى يأمرهم باعداد العدة للمحاكمات القادمة التى ستجرى لكبار الشخصيات، كما أوضح لهم أن هذه المحاكمات يجب أن تتم بأقصى سرعة ممكنة سواء عن طريق العقار الجديد أو عن طريق الوعد والوعيد مادامت النتيجة دائمـــا هى الحصول على اعترافات كاذبة · وتمكن ستالين ، بفضل العقار المدهش وتقديم الوعود للبلشفيك الكبار باطلاق سراحهم بعد المحاكمة العلنية ، أن يضعف مقاومتهم وأن يحصل على أكبر عدد ممكن من الاعترافات · ومع ذلك فان « زينوفييف » و « كامنييف » لم يعترفا بأى شىء لأنهما رفضا تناول أى شىء لعلمهما بأن تناول العقار الجديد سوف يسلبهما كل ارادة ويحيلهما الى مجرد ألسنة تجرى بما لايعى العقل ، وأفواه تهـذى وتدلى بالاعتراف تلو الاعتراف ·

وفى ذات يوم استدعى « كامنييف » الى مكتب « ميرونوف » الذى عهد اليه ستالين باجراء التحقيق مع المتهمين · وفى هذا اللقاء دار بين الرجلين هذا الحوار :

ـ كامنييف (ممتدا) ـ : والآن ماذا ستفعلون بنا ؟

ـ ميرونوف ـ لقد اعترف أكثر من شاهد باشتراكك في المعارضة ·

انهم اتفقوا على أنك كنت تدبر خططا جهنمية ضد الرفيق ستالين وغيره من أعضاء المكتب السياسى · كما أجمع هؤلاء على أنك ، بالاتفاق مع زينوفيف ، قد دبرت حادث اغتيال كيروف ·

ـ كامنييف : ـ انكم تزيفون الحقائق ، وتفترون علينا بل انت تعلم هذا · وحينئذ فتح ميرونوف الملف الخاص براينجولد وغيره من المعترفين ، وبعد أن نظر الى الشقى الماثل بين يديه اردف قائلا :

ـ اسمع ياكامنييف ··

ولكن كامنييف لم يمهله ورد مقاطعا ·

ـ انك تعرف تاريخ الحزب · وموقف البلشفيك حيال حكم الفرد المستبد المتسلط ··· ألست تعتقد فى قرارة نفسك أن هذه مهزلة ؟

اننى أطالب بمواجهة راينجولد ، كما أطالب بمواجهة كل الذين عرضوا بى واسندوا الى تهمة معينة ·

وهكذا تكررت الاستجوابات ولكن كامنييف كان فى كل مرة يصر على مواجهة « راينجولد » وجها لوجه ·

وأخيرا أعلن ستالين أن صبره قد نفد وأنه لا يمكن أن يهمل «كامنييف» الذى تجاوز فى عناده ووقاحته كل حد ، ولا يمكن أن يسكت على « زينوفييف » الذى حذا حذو « كامنييف » ورفض الاعتراف بأى شيء · وكان أن طلب احضارهما اليه فى مكتبه بالكرملين ، ولما مثل الخصمان العنيدان بين يدى ستالين وجدا بجواره فورشيلوف ، وبيشوف، وميكليس سكرتير ستالين الخاص ·· وفى هذا اللقاء الغريب دار هذا الحوار :

ـ ستالين : ـ والآن ماذا لديكم لتدلوا به بين أيدينا ؟

ـ كامنييف شاكيا : ـ لقد وعدتمونا بالنظر فى قضيتنا فى أثناء اجتماع المكتب السياسى ·

ـ ستالين ببرود : ـ أجل ـ هذا حق ، وها أنتم هؤلاء أمام لجنة المكتب السياسى تستطيعون الادلاء بكل شيء ·

ـ زينوفييف : ـ لكنكم قد بذلتم لنا وعـــودا فى الماضى ومع ذلك فانكم نكثتم كل عهد ولم يتحقق وعد واحد من وعـــودكم ، وعـــلى ذلك فلا يمكن ـ بعد هذه التجارب ـ ان نثق بأى عهد بل اننى أتوسل اليكم أن توقفوا هذه المحاكمة التى أعدت لنا لأنها سوف تسىء الى سمعة حزب البلشفيك ، ليس داخل الاتحاد السوفيتى فحسب بل فى الخارج أيضا ، وغلب البكاء « زينوفييف » فأردف قائلا وقد ضعف صوته :

فكر فى ذلك ياسيدى ..

وانتظر ستالين حتى هدأت ثائرة « زينوفييف » ثم أجاب قائلا :

ـ لقد تأخرت دموعك كثيرا ، وكم كنت أود أن أراها قبل فوات الأوان ومع ذلك فمـــا زلت عند وعدى بأن أعفـــو عنك وعن أنصارك اذا فعلت ما نأمرك به .

ـ كامنييف (بصوت متهدج) : ـ وما الذى يضمن لنا أنك لن تصدمنا بعد ذلك ؟

ـ ستالين (ساخرا) : ـضمان ؟ ، أى ضمان هذا الذى تريده ياسيد كامنييف ، لعلك تريد معاهدة رسمية تحت اشراف عصبة الأمم ! ، ثم انفجر ستالين ضاحكا واردف قائلا :

يبدو أن زينوفييف وكامنييف قد نسيا أنهما ليسا فى أسواق بلاد فارس حيث ترتفع أصوات المساومين على « سجادة مسروقة » وانهما فى حضرة المكتب السياسى لحزب البلشفيك !

ويبدو أيضا أن زينوفييف وكامنييف قد نسيا ثلاث حقائق :

أولا ـ ان هذه المحاكمة ليست موجهة ضدهما وانما هى موجهة ضد تروتسكى ، عدو الحزب رقم واحد .

ثانيا ـ اننا اذا كنا لم تعدمهما ، لما كانا يتحديان صراحة اللجنة المركزية ، فكيف نفكر فى اعدامهما وهما يتعاونان مع اللجنة المركزية فى محاربة تروتسكى .

ثالثا ـ لقد نسى الرفيقان أيضا أننا نحن البلشفيك أتباع لينين . لا يمكن أن نفكر فى اراقة دماء البلشفيك القدامى أيا كانت خطورة الجرائم التى ارتكبوها فى الماضى ضد الحروب .

وبعد تبادل النظرات بين كامنييف وزينوفييف نهض الرجلان وأعلنا في صوت واحد :

اننا نوافق على حضور المحاكمة اذا بذلتم لنا وعدا قاطعا بأنكم لن تعدموا أي فرد من البلشفيك القدامى ، وبأن عائلاتنا لن تمس بسوء ، وبأن أعضاء المعارضة السابقين سوف يكونون مستقبلا بمنجاة من أحكام الاعدام ...

وحينئذ أجاب ستالين بصوت كله الاخلاص والوفاء ـ لكم ما أردتم وبذلك أصبح كل شيء معدا للمحاكمة ..

الفصل

العاشر

ستالين ••• مخرج مسرحية « محاكمة الاشقياء الستة عشر »

أراد ستالين – مبالغة فى احكام الخطة ، وضمانا لاظهار المحاكمة بالمظهر الشرعى والجدى فى الداخل والخارج – أن يقوم الكاتب الشهير « مكسيم جوركى » بتسجيل المحاكمة التاريخية بقلمه وأن يصورها بريشته • ولكن الكاتب الكبير رفض ذلك مع علمه بأن هذا الرفض معناه التوقيع على وثيقة الاعدام ، وكان أن كلف « يوجودا » بمهمةالتخلص من مكسيم جوركى • وقد كان « يوجودا » مخلصا فى تحقيق رغبة سيده ستالين فتخلص من مكسيم جوركى وتخلص أيضا من ابنه « بشكوف » الذى يعرف الكثير •

وأخيرا عقدت المحاكمة العلنية فى مبنى اتحاد النقابات بموسكو وتمت المحاكمة حسب الخطة الموضوعة ثم انتهت بصدور الحكم بالاعدام ضد الشقيين « كامنييف » و « زينوفييف » وهكذا نكث ستالين عهده وأخلف وعده ونفذ حكم الاعدام فيهما داخل زنزانات سجن « لوبيانكا » •

والواقع ان المسرحية التىأتقن اخراجها قد خدعت الشعبالسوفييتى الذى صدق الدعاية التى أطلقها ستالين بأن هؤلاء الأشقياء الذين واجهوا الموت الزؤام هم الذين كانوا السبب المباشر للبؤس الذى ذاقت مرارته جماهير الشعب بل ان المظاهرات الكثيرة طافت شوارع موسكو وغيرها من كبريات المدن معلنة تأييد الشعب لستالين ، وهكذا صدق الرأى العام أن الأحوال سوف تتحسن كثيرا بعد تنفيذ حكم الاعدام فى أعداء الدولة وأعداء الشعب •

ولكن الأيام اخلفت ظن الجماهير الساذجة التى مالبثت أن عرفت بالتدريج ، أن الأمل الباسم لم يكن الا سرابا كاذبا • فالأسعار ظلت على حالها مرتفعة ، كما أن الأجور بقيتكما هى منخفضة وبسيطة وحينئذ بدأ رد الفعل من جانب الشعب كله فى توجيه نفسه ضد زعيمه الذى غرر به وخدعه •

ثم كانت الصدمة الثانية التى كادت أن تطير لبه حين أعلنت الحكومة الدانيمركية على صفحات جريدتها الرسمية « سوشيال ديموكريتان » أن الأخبار التى دارت حول « فندق بريستول » حيث تم الاجتماع المزعوم بين ابن « تروتسكى » و « وجولتزمان » عام ١٩٢٢ ، انما هى أخبار كاذبة لسبب بسيط هو أن هذا الفندق كان قد أقفل بالفعل عام ١٩١٧ ،

وكان هذا الاعلان دليلا قاطعا على أن المحاكمة العلنية لم تكن سوى مجرد رواية أو مسرحية تفوق ستالين على نفسه فى اخراجها ·

كذلك أوضحت الجريدة الدانيمركية ان « سيدوف » ابن تروتسكى لم يكن مع والده فى الدانيمرك فى أثناء هذه الفترة لأنه كان فى برلين يستذكر دروسه استعدادا لاجتياز الامتحان الذى عقدته الكلية الفنية ··

ولما علم ستالين بانكشاف أمره هدد ضباط البوليس السرى بالويل اذا لم يحددوا أسماء الضباط الذين تسببوا فى هذه الفضيحة ، بل ان ستالين عزل « يوجودا » وعين بدلا منه « نيقولا ايفانوفتش بيرزوف » مديرا عاما لادارة البوليس السرى ·

وأراد « ايفانوفتش » ان يثبت لستالين كفاءته واخلاصه فجهز قائمة بأسماء المسئولين الذين يجب التخلص منهم ، وابتدأ بالبوليس السرى نفسه كى يجتث جذور أنصار يوجودا ، وبذلك شرب الذين طالما فتكوا بأرواح الأبرياء والمظلومين من نفس الكأس ·· كأس المنية ، وواجهوا المصير المؤلم داخل زنزانات سجن لوبيانكا ·

والحقيقة ان « ايفانوفتش » لم يخيب ظن سيده فخلصه من مئات الضباط من البوليس السرى ، كما خلصه من آلاف أعضاء المعارضة السابقين والذين سمح لهم بالانضمام الى الحزب مرة ثانية · ولم يستطع أى انسان فى الاتحاد السوفيتى أن يحض ستالين على وضع حد لهذه البربرية والوحشية لأن ستالين قد اتخذ قراره وأعلنها كلمة مدوية على الملأ :

« حينما تسقط الأشجار تتطاير القطع الصغيرة ·· »

ستالين يعد العدة للمحاكمة العلنية الثانية :

لم تكن « حمامات الدم » الستالينية مقتصرة على المواطنين السوفييت وحدهم وانما اكتوى بنارها هؤلاء الأجانب الذين كانوا يعملون فى « جنة العمال » ولعل خير مثل على ذلك المحاكمة السرية التى انتهت بالنهاية التقليدية ـ أى الاعدام الذى نفذ فى ثمانية من « التروتسكيين السابقين » الروس ، ما عدا أجنبيا ألمانيا ·

ولكن ستالين الذى لم يطفىء تعطشه الى المزيد من الدماء لم يكن ليقنع بكل ذلك فاتجه الى التمهيد لعقد المحاكمة العلنية الثانية ونظرا لحرصه على ألا تحدث أخطاء أخرى فى هذه المرة ، فانه بدأ بمساومة

« راديك » واعدا اياه بالعفو عنه واطلاق سراحه • اذا تعـــاون معه في اعداد المحاكمة • والحقيقة ان « راديك » قد أثبت جدارة فائقة وأصبح بحق مؤلف مسرحية « المحاكمات الســتالينية الثانية » التى أجريت فى مبنى اتحاد النقابات بموسكو والتى عرفت فيما بعد باسم « محاكمة الاشـقياء السبعة عشر » ولما انتهت هذه المحاكمة تنفس زعماء السوفييت الصعداء وصدر الحكم على « راديك » « وسوكولينكوف » و « آرنولد » بالســجن عشر سنوات ، كما حكم على « ستريلوف » بالسجن لمدة ثمان سنوات، أما الأشقياء الثلاثة عشر الباقون فقد أعدموا رميا بالرصاص •

ستالين يفقد الكثير من شعبيته :

على الرغم من أن البلشفيك المتهمين قد أظهـــروا بمظهر العملاء التروتسكيين فى أثناء المحاكمة العلنية الثانية ، فانهم ظلوا ، فى نظر الشعب السوفيتى ، أصدقاء « لينين » المخلصين الذين حملوا أرواحهم على أكفهم فى سبيل الاطاحة بالحكم القيصرى البائد ، كذلك لم يستطع ستالين ــ مع حملة الدعاية الرهيبة ــ ان يثير عداوة الشعب ضد ضحايا المحاكمة ، وبدلا من أن ينجح ستالين فى تحقيق غرضه وجد نفسه وقد فقد جزءا كبيرا من شعبيته التى أصبحت فى خطر •

ومع ذلك فان رد الدكتاتور الطاغية على ذلك لم يكن سوى المزيد من الأوامر التى أصدرها بمضـــاعفة القمع والقاء القبض على المعارضين وابادتهم بلا محاكمة ، وبالاضافة الى ذلك كله ارسال مئات الألوف من الذين يشك فى اخلاصهم الى معسكرات السخرة والسجون •

كذلك أصدر ستالين أوامر مشددة بتطهير الجيش الأحمر ، وتحت هذه الحركة الدموية اختفى عدد كبير من ضباط الرتب العالية ، وضباط الصف الذين لايمكن الوثوق فيهم والذين لفقت لهم تهمة الخيانة وبيـــع الوطن رخيصا لليابانيين والاستعماريين الألمان •

لكن ستالين لم يقنع بكل ذلك ففكر فى أن تكون جولته القادمة مع العملاء الذين يعملون في الخارج والمواطنين السوفييت الذين يعملون فى القنصليات والسفارات وغيرها من المؤسسات •

وان هى الا أيام معدودة حتى كانت الأوامر قد صدرت باستدعاء الموظفين السوفييت الى موسكو وذلك لرفع تقارير مطلوبة • وكان أن سعى هؤلاء الى حتفهم بأقدامهم ، لأنهم ما كادوا يصلون الى أرض الوطن

حتى ألقى القبض عليهم ولم يعد واحد منهم حتى اليوم الى مقر عمله ـ أما أولئك الذين آثروا تأجيل عودتهم الى الاتحادالسوفييتى فقد أكرهوا على تسليم أنفسهم أما تحت التهديد بالخطف واما باعادتهم الى بلادهم قهرا وقسرا ٠

ومع ذلك فان حفنة من الموظفين السوفييت أصرت على ألا تعود ، وكان من بينهم « اجناز رايس » الذى كان يعمل لحساب البوليس السرى والذى كتب الى موسكو معلنا قطع أى علاقة مع الحزب وادارة البوليس السرى ٠ لكن « اجنـاز رايس » لم يلبث أن وجد مقتـولا بالقرب من « لوزان » أما « والتر كريفتسكى » فقد كان سعيد الحظ بعض الشىء اذ انه ترك وظيفته في البوليس السرى وهرب الى باريس حيث احتمى بالبوليس الفرنسى الذى لم يستطع أن يعصمه من القتل ، اذ أنه وجد مقتولا بأحد فنادق واشنطون عام ١٩٤١ ٠

قابيل : ماذا فعلت بأخيك هابيل ؟

على أن أبشع جريمة ارتكبها ستالين هى قتله صديق صباه ورفيق شبابه « آبل يينو كيوز » الذى ظل طوال حياته الصديق الوفى والرفيق المخلص لستالين ٠ ولكن وفاءه واخلاصه لم يشفعا له ٠ ولم يمنعا ستالين من أن يلفق له تهمة الخيانة العظمى والتجسس ٠ وكان أن صدر الحكم ضده بالاعدام رميا بالرصاص مع ستة آخرين من البلشفيك ٠

ولقد كان اعدام « آبل يينو كيوز » بمثابة صـدمة أطارت ألباب أصدقاء ستالين وأعدائه على حد سواء ، بل ان تروتسكى الذى هزتههذه القسوة كتب قائلا :

« قابيل : ماذا فعلت بأخيك هابيل ؟

أما ستالين فانه رد على سؤال تروتسكى ردا مفحما اذ أنه أعلن بدء المحاكمة العلنية الثالثة وفى هذه المرة لم يحاكم رجال الدولة والسياسيين وحدهم بل امتدت الاتهامات لتشمل مشاهير الأطباء السوفييت ٠

وفى اليوم الاول للمحاكمة أثار « كرينسكى » ضجة لم تكن متوقعة

اذ أنه لما جاء دوره فى الرد على السؤال التقليدى : « مذنب أو غير مذنب » صاح فى وجه رئيس المحكمة قائلا :

اننى لست مذنبا كما أننى لست تروتسكيا ولم أكن يوما منتميا الى كتلة اليمينيين والتروتسكيين ولا ارتكبت أى جريمة من الجرائم التى اتهمت بها بل اننى لا أقبل ـ بصفة خاصة ـ أى اتهامات ضدى بالتجسس لحساب الألمان ٠

ولكن « كرينسكى » ، عاد فأقر بخطئه فى اليوم التالى واعترف ، بعد حقنه بالدواء المدهش ، بأنه كان يهذى بالأمس تحت وطأة شعور وقتى بالخزى والعار ٠

الفصل الحادى عشر

روزا كاجانوفتش ٠٠٠ زوجة ستالين الثالثة

استمرت حملات القمع وأحكام الموت والقتل بالجملة حتى بعد انتهاء المحاكمة الثالثة : وقدر لروسيا أن تنزف الدماء الغزيرة من ملايين الجروح التي ملأت كل شبر في جسدها الذي أضناه التعذيب حتى لقد عجز الناس عن احصاء عدد الضحايا وان كانت « الملفات » الرسمية قد قررت عدد التعساء في الفترة من قتل كيرون في ديسمبر عام ١٩٣٤ حتى نهاية عام ١٩٣٨ بنحو سبعمائة ألف من الذين أعدموا أو عذبوا حتى الموت ، فضلا على خمسة ملايين آخرين من الذين امتلأت بهم معسكرات السخرة والعمل الاجبارى ٠

لقد صمم ستالين في هذه الفترة على أن يتخلص من أى انســان كان يعتبره خطرا عليه أو يشك في ولائه له ، بل انه قد تخلص حتى من الذين كانوا يعرفون عنه أشـــياء كثيرة بغض النظر عن الاخلاص له ، ومناصرته ، لذلك فانه وان كان قد أبقى على معـــاونيه الوفيين « نيقولا ايفافوفتش بيزوف » مدير البوليس السرى و « زاكوفسكى » الذى ساعد سيده في الاعداد للمحاكمات العلنية غير أن ســتالين رأى أن يحرمهما من نعمة الحياة حينما تأكد له انهما قد أطلعا على الكثير من أسراره ٠ أما « زاكوفسكى » فقد كان سهلا اذ انه أودع السجن ثم وجهت اليه تهمة « السادية » والقسوة الوحشية وما لبث ان أعدم رميا بالرصاص ٠ واما « بيزوف » فقد كان عنيدا الى حد ما ، ولذلك فان ستالين رأى أن يتركه للفرصة القادمة ٠

لكن ستالين ما لبث أن فوجىء ببعض أعضاء المكتب السياسى ، وعلى رأسهم « بيريا » و « مولوتوف » ، وقد تصـــدوا له مطالبين بوضع حد لحملات التطهير الدموية معلنين أن هذا القتل الجماعى قد جعل من الشعب السوفييتى شعبا يكره من أعماق قلبه حكم ستالين ويتحين الفرصةللثورة ضده والاطاحة به ٠ غير أن ستالين آثر أن يتظاهر بعدم معارضته مطلب « بيريا » ووافق على أن يكلفه ، بالاشتراك مع مولوتوف ، باجراء سلسلةمن التحريات عن مناشط « بيزوف » وتحركاته ٠

ستالين ... ذو القلب الفولاذي ... يقع في الحب من أول نظرة :

بمجرد أن ماتت « ناديوتشكا أليلبوفا الزوجة الثانية لستالين ، فكر فى أن يختار الزوجة الثالثة ، وفى اللقاء الذى جمعه مع « روزا كاجانوفتش » شعر بقلبه المتحجر وقد خفق بالحب من أول نظرة ، فكان أن عقد العزم على أن يطلب يدها ومع أن « روزا كاجانوفتش » كانت تعلم الكثير عن حياة ستالين الخاصة وعلاقاته مع جيش من العشيقات وعدم تردده فى دس السم لزوجته « ناديوتشكا » الا أنها قررت ألا تتدخل فى شئونه مع النساء الأخريات ، واشترطت عليه فقط أن يسمح لها بمقابلة أصدقائها ومواصلة دراساتها فى الأدب . ولقد أثارت موافقة ستالين على هذا الشرط دهشة كل الذين كانوا يعرفون ستالين عن كثب .

وقد عرف عن «روزا» أو «روزالى كاجانوفتش» انها كانت تحب المرح وتحرص على أن تغشى المسارح والحفلات الموسيقية وأنها ذات صوت جذاب ولون وردى ، وان ستالين كان ينسى فى أحضانها شواغل الدولة ومسئوليات الحكم ، ومما ضاعف من حبه لها انصرافها عن التدخل فى الشئون السياسية بعد أن تعلمت درسا قاسيا مما حدث للزوجة الثانية .

وعلى أية حال فقد كانت « روزا » وثيقة الصلة بجميع المتصلين بستالين وأقاربه كما كانت تحب ابنه « فاسيلى » وابنته « سفيتلانا » التى رزق بها من « نادزدا » زوجته الثانية . وقد تمكنت من اكتساب ثقة فاسيلى بنوع خاص حينما ساعدته على حل مشكلاته الشخصية التى كانت بسبب اسرافه فى العربدة وشربه الخمر (الفودكا) ومغامراته مع النساء .

ومع ان « روزا » نفسها لم تكن تحب حملات التطهير الدموية الا أنها لم تحاول أن تنتقد تصرفات ستالين فى أى يوم من الأيام .

ولكن صلة ستالين بزوجته الثالثة لم تدم الى أبعد من عام ١٩٣٦ اذ انه ما لبث أن سئمها وضاق بتصرفاتها وفرط اهتمامها باخوتها الذين لم تكن لتطيق ايذاءهم على يد « فورشيلوف الذى كان فى ذلك الحين موضع ثقة ستالين وساعده الأيمن . وأخيرا وبعد أن يئس ستالين من اصلاح زوجته وعدولها عن التصدى لفورشيلوف آثر الطلاق منها . ومنذ ذلك اليوم اختفت « روزا » وأصبحت أثرا بعد عين . أما شقيقها « لازار » فقد كان الوحيد من أسرة « كاجانوفتش » الذى ظل محتفظا بمكانه عند سيد الكرملين لأنه وهب حياته واهتمامه ووقته لستالين والحزب ، ولم يكن فى قلبه من مكان لأخواته أو أقاربه أو أصدقائه .

الفصل الثانى عشر

جنون العظمة

كان ستالين أكبر رجل فى روسيا كلها ، واقعا تحت تأثير مركب نقص بسبب قامته القصيرة وقوامه الذى لم يكن فارعا . مما جعله يصمم دائما على انتعال الاحذية العالية التى كان ينتقيها له دائما « باوكر » قائد حرس الكرملين الذى كان يعرف حق المعرفة عقدة النقص عند سيده ، بل ان « باوكر » مغالاة فى اخلاصه لسيده ومن أجل كسب رضاه ، قد عمد الى وضع منصة خشبية عالية كى يقف عليها ستالين عند استعراضه القوات العسكرية فى الميدان الاحمر حتى يظهر أمام الشعب بقامة أطول بمقدار بوصتين من قامته الحقيقية ، أما ستالين من ناحيته فقد كان يصر دائما على ارتداء معطف طويل جدا كان يصل الى قدميه كى يكسب قوامه طولا مصطنعا .

كذلك عرف عن ستالين عزوفه عن ارتداء الملابس المدنية . وكرهه للانواط والنياشين التى لم يبدأ فى تزيين صدره بها الا فى أثناء الحرب العالمية الثانية .

أما وجهه فقد كان ممتلئا ، بشكل غير عادى ، بالبثور وآثار الجروح مما جعله يصر دائما على أن يقوم « باوكر » الذى كان حلاقا فى مطلع حياته « بحلاقة ذقنه » وبسبب ذلك تمكن « باوكر » من الترقى فى المناصب ، وان هى الا مدة وجيزة حتى كان « باوكر » قد أصبح مكلفا بتموين البوليتيورو « المكتب السياسى » بالمواد الغذائية والسيارات والملابس . فضلا على مركزه كقائد لحرس الكرملين الخاص . كما كان مكلفا باعداد تقارير عن حياة أعضاء « البوليتيورو » الخاصة وبذلك كان « لباوكر » سلطة لا يمكن لأحد من زملائه أن يتصدى لها ، بل انه لم يكن متجاوزا اختصاصاته حينما وضع تحت رقابته زعيم الكرملين « اناستاسى ميكويان » الذى كان يلقب « بالثعلب العجوز » الذى يتحين كل فرصة للقفز الى أعلى المناصب القيادية فى أقصر وقت ممكن .

ومع أن « ميكويان » لم يكن محبوبا جدا فى الكرملين الا أن ستالين كان يعتبره زعيما ذكيا مخلصا ومفسرا حاذقا للمادية الجدلية ، مما جعل له فى قلب ستالين مكانة خاصة عصمته من العقوبة حتى حينما انكشف أمر « الفضيحة » اذ انتهت تحريات ستالين الى أن عددا من كبار الشخصيات فى الكرملين قد حصلوا على امتيازات خاصة ، مثل المساكن الفاخرة

والسيارات الفارهة وغيرها من وسائل الترف · وقد كان من بين هؤلاء « ميكويان » و « فورشيلوف » و « بياتاكوف » ولقد انتشرت فى ذلك الحين شائعات قوية فسرت هذا العفو بأن « باوكر » نفسه كان طرفا فى الفضيحة ، وبذلك فقط حفظ التحقيق فى هذه المسألة ·

لكن « باوكر » على الرغم من السنوات الطويلة من التفانى فى خدمة سيده ، والاحتياطات الكثيرة « للتأمين على حياته » وعلى الرغم أيضـا من الاجتهاد فى استيراد الكماليات وشتى وسائل الترف واللهو من أجل ستالين · فانه ما لبث أن واجه نفس المصير الذى واجهه أصدقاء ستالين الآخرون ، اذ تمت محاكمته بتهمة التجسس لحساب الالمان · ونفذ فيه حكم الاعدام رميا بالرصاص داخل سجن « ليوبيانكا » ·

الفصل الثالث عشر

الخدعة الهندية ... تنطلى على ستالين

جنت على نفسها براقش ...

أما « بيزوف » مدير البوليس السرى الستالينى « فانه لما استشعر الخطر وخاف من قرب النهاية المؤلمة أسرع الى سيده يستجدى رضاه عن طريق تقديم التقارير السرية التى كان قد أعدها ، وكشف فيها كل شيء عن أعضاء المكتب السياسى متهما « مولوتوف » و « فورشيلوف » و « بيريا » و « كاجانوفتش » و « ميكويان » و « فوزنيسكى » بالعمل فى صف المعارضة التى قد لا تمانع فى اغتيال ستالين ، والاطاحة بالمكتب السياسى وقلب الحكومة من أجل تمكينهم من الاستيلاء على الحكم بالاشتراك مع تروتسكى .

لكن ستالين الذى كان قد قتل « ياجودا » من قبل للسبب نفسه ـ وهو الاطلاع على ما يجوز وما لا يجوز من الأسرار ـ قد ألقى بالتقارير فى سلة المهملات بعد احراقها ، وبعد أيام قليلة وجد مدير البوليس السرى الذى جنى على نفسه وارتكب نفس الغلطة التى ارتكبها « ياجودا » منذ خمس سنوات .

أما ستالين فانه لما وجد أن الأمر قد استتب له وأصبحت زعامته كاملة ، بدأ يفكر فى وضع حد لحملات التطهير . وكان أمل الحصول على نظام مخفف القيود مقترنا باسم مدير البوليس السرى الجديد « لافيزنتى بيريا » الذى أسرع بمجرد توليه المنصب الجديد ، الى تأسيس لجان رد الاعتبار لأعضاء الحزب والضباط فى السجون والمنفى . وهكذا وتحت الشعار الستالينى الجديد « الانسان هو رأس مالنا » قام ستالين بتحويل الجيش الأحمر الى مؤسسة وطنية واستبدلت صورة « ماركس ولينين » فى الاكاديمية العسكرية والمدارس الحربية والثكنات بصور ولوحات أبطال القتال الروس القدامى مثل « الكسندر نايفسكى » .

كذلك أظهر ستالين لشعبه أن الحملة المعادية للدين ، التى كانت موجهة ضد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ، قد انتهت . فضلا على أن عام ١٩٣٤ قد تميز بتحسن الأحوال الاقتصادية ، والتصريح بامتلاك المنازل الخاصة وغيرها من المنقولات ذات القيمة التى أجاز القانون الستالينى الجديد توريثها ـ لأول مرة فى تاريخ الأمة السوفييتية . وفى الوقت

نفسه امتدت حركة الاصلاح الى الحياة الاجتماعية اذ تم تقييد الطلاق ولم يعد من الممكن الذهاب الى « مسجل مكتب الزواج » بقصد حل الزواج بمجرد تصريح الزوج بأن الزواج لم يكن متكافئا أو مناسبا ٠

ستالين ٠٠٠ وهتلر ٠٠٠ وجها لوجه ٠٠٠

وعلى حين غرة وبلا سابق انذار قام « هتلر » باحتلال تشيكوسلوفاكيا وأعلنها « محمية بوهيميا ، ومورافيا » وكان هذا الاجراء صدمة كبيرة لستالين الذى استشعر الخطر الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى ، كما خشى أن تكون جمهوريات الاتحاد السوفييتى هى الهدف الثانى لأطماع هتلر ٠ ولذلك فانه اجتمع بمولوتوف وبيريا وفورشيلوف فى مكتبه حيث دار هذا الحوار بينه وبين وزير الحربية « فورشيلوف » :

ـ ستالين : ـ كم يلزمنا من الوقت لنصبح مستعدين لصد أى هجوم بنجاح ؟

ـ فورشيلوف : يلزمنا لذلك ثلاث أو أربع سنوات ٠٠ ان الجيش الأحمر ليس مستعدا بعد لخوض حرب كاملة النطاق ضد جيش مجهز بأحدث الأسلحة كجيش الألمان ، كما اننا نحتاج الى المزيد من الدبابات الحديثة والطائرات المقاتلة السريعة والمدافع الثقيلة ، فضلا على أننا يجب أن نجهز مدفعيتنا بالأسلحة الآلية ٠ »

ـ ستالين : ـ اذن فلتكن خطتنا هى تجريب تكتيك تأخير العدو ومماطلته ٠٠٠ اننا يجب أن نتظاهر أمام هتلر بأننا نسعى الى كسب صداقته الى أن نصبح مستعدين فنلقن جيشه درسا لن ينساه ٠٠٠ »

وفى الوقت نفسه قام ستالين بطرد « ليتفينوف » من منصبه كوزير للخارجية لأن أصله اليهودى كان معروفا للجميع ، والألمان كانوا يكرهون كل ما هو يهودى ، وعين بدلا منه « مولوتوف » الذى لم يكن يعلم أحد حقيقة أصله اليهودى وهكذا وضع ستالين خطته بحيث يبدأ « فورشيلوف » سلسلة اتصالات مع الدول الغربية وفى الوقت نفسه يبدأ مولوتوف محاولاته للاتصال بالألمان ٠

لكن مولوتوف لم يتقن الدور الذى أسند اليه حتى ان الكونت ـ فون شولنبرج وزميله الدبلوماسى « فون ريبينتروب » قد عجزا عن معرفة النوايا الحقيقية التى يكنها السوفييت للرايخ الثالث بسبب بطء مولوتوف وتحفظه الشديد ٠ ومع ذلك فان مولوتوف تمكن من معالجة الموقف بذكاء

واستطاع أن يعقد مع الألمان اتفاقية تجارية ومالية وقعت فى برلين ٠

ولكن ذلك لم يكن سوى البداية فقط ، اذ أن المفاوضات استمرت وما لبثت أن أسفرت عن توقيع اتفاقية عدم الاعتداء بين ألمانيا وروسيا ٠

غير أن هـــذه الاتفاقية لم تكن ، فى نظر الشعب السوفييتى والشيوعيين الأجانب ، سوى ضربة أخرى ، لأن الشـــيوعيين الخلص أوجسوا خيفة وأشفقوا على الشعب الروسى من الدخول مع هتلر فى اتفاق من أى نوع كما أنهم رأوا فحسب « الفاشية » افتك سلاح فى يد الرأسمالية والامبريالية ٠

أما ستالين فقد كان له رأيه المخالف ، اذ أنه وصف هذا التحالف على أنه « زواج العقل » وسرعان ما تقبل الشعب الســوفييتى هذه الحجة الستالينية ٠ بل سرعان ما أعلن هذا الشعب أن ستالين قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه حينما اتخذ هذا القرار الحكيم ٠ وفى الوقت نفســـه أصبح هذا الشعب أشد اقتناعا بأن التحالف مع الشيطان لازم لتوجيــه الجهود وتعبئتها من أجل التعمير الداخلى ومضاعفة الانتاج الوطنى وبذلك يمكن للجيش الاحمر أن يصبح أقوى وأحدث جيش فى العالم كما يمكنه أن يتصدى لأى عدوان من أى دولة ٠

ستالين ٠٠٠ والدول الغربية :

على أن هناك من الدلائل ما يؤكد لنا أن ستالين لم يكن يتوقع ــ بل لم يكن يتصور ــ أن الألمان سيشنوا هجوما خاطفا على بولندا ، فضـــلا على أنه لم يصدق أذنيه حين سمع أن بريطانيا وفرنسا قد أعلنتا الحرب على ألمانيا النازية ٠ ولما تيقن من صحة النبأ ، أدرك أنه كان مخطئا فى النتيجة التى انتهى اليها بعد مؤتمر « ميونخ » بأن الدول الغربيةسوف تقف الى جانب « هتلر » كجزء من خطة حرب الرأسماليين ضد الاتحاد السوفييتى ٠

ومع أن مولوتوف ــ بناء على توجيهات ستالين ــ قد حاول تبرير تأجيل دخول الجيش الأحمر « بولندا » بأسباب فنية ، الا أن السبب الحقيقى لهذا التأجيل لم يكن ســـوى موجة الكراهية والبغضـــاء التى انتشرت بين صفوف الجماهير الروسية ضد الالمان ٠ ومن هنا فقد كان على ستالين أن يبحث بأى طريقة عن وسيلة لمنع الجيش الاحمر من مواجهة جيش النازى حتى لا يقع الهجوم على الفاشست المبغضـــين المكروهين وبذلك تبدأ الحرب ضد « الريخ الثالث » ٠

أما السبب الثانى الذى دفع ستالين الى اتباع تكتيك التأجيل فقد كان رغبتــه فى أن يوهم الدول الغربيـــة بأنه ليس طرفا فى الخدع الهتلرية . وبذلك يستطيع أن يتوقع تعاون العالم المعادى للنازية معه ضد الرايخ الثالث مستقبلا .

والواقع ان شعب الإتحاد السوفييتى قد استبدت به الدهشـــة لما رأى جيوش هتلر وقد سمح لها بالاغارة على المدنوالقرى البولندية ومواصلة الزحف ـ بلا مقاومة ـ داخل القطر الشقيق . بل ان هذه الدهشة قد تحولت الى شعور بالاشمئزاز الحقيقى لما وصلت الىأسماع هذا الشعب تلك الكلمات الرقيقة التى كتبها مولوتوف الى الســـفير الألمانى فى موسكو مهنئا الرايخ الثالث على النصر الحاسم وغزو وارسو .

وأكثر من هذا وذاك أن الشعب السوفييتى فى هذه الفترة كان على وشك التمرد على ستالين ، والاطاحة بحكومته بسبب هذه العوامل . ومما ضاعف من صعوبة الموقف أن ستالين لم يكن ليجرؤ على اصـــدار أوامره الى البوليس السرى ببدء مجزرة جديدة لتطهير صفوف الشعب ، لسبب بسيط ، وهو انه لم يكن متأكدا من البوليس السرى نفسه .

وعلى ذلك فقد كان على ستالين ، ازاء ذلك كله ، أن يسلك طريقـا واحدا هو طريق الدعاية وتفهيم الشعب أن سياسته التى اتبعهـــا لم تكن سوى مناورة سياســـية موحية لكسب الوقت حتى يســـتطيع الجيش الأحمر أن يصل الى قوته الكاملة .

لكن هذه الدعاية ما لبثت أن انكشفت ولم تعد تنطلى على الشعب الذى رأى بعينيه أن بولندا قد تحولت الى أطلال خربة فى مدى عشرة أيام فقط . وأن هتلر سوف يجعل الجولة القادمة فى الاتحاد السوفيتى .

وهكذا وجد ستالين نفسه فى موقف لا يحتمل التسويف أو انتحال الاعذار وكان عليه فى هذه المرة أن يفعل شيئا ملموسا يرضى الشعب الذى تذمر واستبد به التعب .

القوات الألمانية ... والسوفييتية .. معا لأول مرة :

تم أول لقاء بين القوات السوفييتية والألمانية فى الثامن عشر من سبتمبر فى « برست ـ ليتوفسك » ، وذلك على أثر أمر أصدره ستالين الى الجيش الاحمر بالتقدم وعبور الحدود البولندية حيث يوجد الألمان .

وهكذا تقابل الجيشان ولكن دون وقوع اشـــتباكات من أى نوع ـ

اذ أن القوات السوفييتية كانت تحمل أوامر صارمة بتفـــادى التحرش بالقوات الألمانية ٠

وفى الوقت نفسه ، وكمحاولة للقضاء على الشائعات التي انتشرت بأن تقدم الجيش الأحمر كان موجها ضد « الرايخ » ، صدر من موسكو « بيان مشترك » أوضح أن المهمة الأساسية للقوات الروسية ـ الالمانية هي اعادة السلام الى بولندا والحفاظ على الأمن فيهـــا ، بعـد انهيـار الحكومة البولندية ، وكذلك مساعدة الشعب البولندى فى جهوده من أجل تعمير الوطن واعادة بنائه ٠

ومن الواضح أن ستالين كان يرمى الى أن تكون الدول المجاورة للاتحاد السوفييتي دولا صديقة ، لأنه كان يعلم ان الحرب ضد هتلر قادمة لا ريب فيها ، كذلك من الواضح أن ستالين كان يطمع فى بناء قواعد جوية وبحرية فى دول البلطيق وذلك حتى يؤمن مداخل الاتحاد السوفييتى ، والواقع أن ستالين قد ضغط على هذه الدول ضغطا قويا متواصلا حتى رضخت واستسلمت لطلبه وكان له ما أراد ٠

غير أن امتداد النفوذ السوفييتى الى منطقة البلطيق قد سبب قلقا شديدا لفنلنده التى خشيت أن يحدث معهـــا الشىء نفسه فى الجولة القادمة ٠ لكن فنلندة لم تكن مستعدة للتنازل عن استقلالها ، ولا هى كانت مستعدة للتخلى عن سياستها المحايدة ، فضلا على أن الســـويد والدانيمرك والنرويج قد شاركت فنلنده فى مخاوفها وعبرت عن اهتمامها الشديد بالمسألة الفنلندية ، وفى الوقت نفسه سلم السفير الامريكى فى موسكو رسالة شخصية الى الرئيس « كالينين » ، كتبها اليه الرئيس الامريكى الذى ناشد الاتحاد الســـوفييتى الابتعاد عن فنلنده وعدم مضايقتها بأية مطالب لا تتفق مع المحافظة على العلاقات السلمية بين البلدين واستقلال كل منهما ٠

تدهور العلاقات السوفييتية ـ الفنلندية :

على الرغم من كل الدعايات العريضة التى أطلقها ستالين حول النجاح الذى أحرزه السوفييت بفضل الصداقة مع الالمان ، مثل تحرير أوكرانيا الغربية من النير البولندى ، والحصول على امتيازات فى لاتفيا ، واستونيا ، وليتوانيا ، والوصـــول الى اتفاقيات مرضية للطرفين مع الفنلنديين ، الا أن التوتر داخل الاتحاد السوفييتى ظل على حاله ٠ وعلى ذلك فقد كان على ستالين أن يبحث عن حيلة جديدة ليخدع شعبه ، فأسرع الى القاء اللوم

على الدول الغربية وعدها مسئولة عن كل ما حدث ، كما أصدر تعليمات الى مولوتوف بأن يكون كبش الفداء ويعلن أمام مجلس السوفييت الأعلى انه هو صاحب الفكرة ومبتدع هذه السياسة ٠

ومع ذلك فان الموقف قد تدهور بشـــكل ينذر بالخطر ، على أثر انهيار المفاوضات السوفييتية ـ الفنلنديه ، وذلك حينما ادعت الحكومة السوفييتية أن المدفعية الفنلندية قد أطلقت نيرانها على الأراضى السوفييتية مما أدى الى مصرع أربعة من الجنود الروس واصابة آخرين ، والواقع أن ستالين قد أثار هذه الضجة المفتعلة كى يغطى نواياه لخرق اتفاقية عدم الاعتداء بين الاتحاد السوفييتى وفنلنده ٠

أما فنلنده فقد أعلنت على الملأ أن التحقيق قد كشف عن بطلان المزاعم السوفييتية كما أسفر عن أن شيئا من هذا القبيل لم يحدث ومع ذلك فان هذا الاعلان الفنلندى لم يمنع السوفييت من اسقاط قنابل طائرات الجيش الأحمر على « هلسنكى » وشن الغارات المنتظمة على المدن الفنلندية الأخرى ، ولما كانت الحرب قد أشرفت على بلوغ منتصفها أمكن لســـتالين أن يسترد مكانته ، وحينئذ فقط ظهرت على صفحات الجرائد السوفييتية تلك العناوين الكبيرة التى وصفت ستالين بأنه « أعظم رجل من رجالات الدولة » وبأنه « الجندى والمفكر السياسى فى كل الأوقات » ، كما نعتته الصحافة السوفييتية بأنه « معلم البشرية وصديقها » ، وأسبغ عليه مكتب الرياسة ومجلس السوفييت الأعلى لقب « بطل القوة العاملة الاشتراكية » وفى الوقت نفسه ظهرت عناوين مماثلة على صفحات الصحف الالمانية التى أشادت بجهوده واعتبرته « أعظم شخصية فى الاتحاد السوفييتى » وما كان من ستالين ، ازاء هذه اللفتة الهتلرية الكريمة ، الا أن بعث اليه بالبرقية التالية :

« ان هذه الصداقة التى ربطت بين شعبينا ، وزادها الدم قـــوة وتمكينا ، لا يمكن الا أن تبقى وطيدة راسخة » ٠

لكن الحرب السوفييتية ـ الفنلندية جلبت خيبة الأمل والأسى على ستالين ، اذ أن الجيش الاحمر ـ مع تفوقه الظاهر فى العدة والعدد ـ لم يستطع أن يلحق الهزيمة النكراء بالجيش الفنلندى الصغير ، وعلى ذلك فقد قابل الشعب السوفييتى نبأ المفاوضات والاتصالات السوفييتية ـ الفنلندية بعد توسط السويد بينهما ، بقلوب غمرها السرور لانتهـــاء الحرب الفاشلة ٠

ستالين ينذر رومانيا لآخر مرة :

في ذلك الوقت كان من الواضح أن التفاهم بين ستالين وهتلر قد بلغ ذروته ، لذلك فكر ستالين في أن يستفيد من هذا التفاهم الى أقصى درجة ممكنة .

ومن هنا أراد أن يجرب حظه في رومانيا ، وكان أن وجه اليهـــا انذارا نهائيا . لكن ســـتالين مع ذلك لم يستطع أن يخفى على المقربين منه حقيقة هامة ، هي أنه على الرغم من العلاقات الطيبة مع ألمانيا الهتلرية الا أن الحرب الالمانية السوفييتية قادمة لا ريب فيها ، ان لم تكن قـد باتت وشيكة الوقوع ، وكان أن دفعه هذا الشعور الى مراقبة تحركات هتلر واحصاء سكناته ، خصوصا بعد الأزمة التي أدت الى تدهور العلاقات اليوغوسلافية ـ الألمانية ، وتجمع الحشود الألمانية الضخمة على الحدود المجرية والرومانية والبلغارية ، فضلا عن المعلومات التي جمعتها المخابرات السوفييتية عن التجمعات العسكرية التي حشدتها ألمانيا على خط الحدود السوفييتية ـ الألمانية في « بولندة » .

على أن ستالين كان حريصا على ألا ينقطع حبل الود بينه وبين هتلر ولذلك أصدر أوامره الى الطيارين السوفييت بعدم اختراق المجال الجوى للأراضي التي احتلتها القوات الالمانية ، لكن الطيارين لم يطيعوا أمر سيد الكرملين طاعة عمياء ، اذ أن الجنرال « جودل » سجل ملاحظاته المتكررة للتعديات اليومية على الحدود وتحليق الطائرات السوفييتية على الاراضي التي يرفرف عليها العلم الألماني .

وحتى يتظاهر ستالين بحرصـــه الشديد على اطلاع الرأى العـــام السوفييتي على كل شئون الدولة ، قام بعقد اجتماع في مكتبه بالكرملين حضره مولوتوف وكاجانوفتش ، وزدانوف ، وفورشيلوف ، وغيرهم من العلماء والخبراء العسكريين ، ولقد سجل « ميكليس » سكرتير ستالين هذه المناقشة التي جرت في أثناء الاجتماع السرى :

ـ ستالين : والآن هل تستطيع أيها الرفيق فورشيلوف أن تصف لى بالضبط حال الجيش الأحمر . ؟

ـ فورشيلوف (مجيبا) : انني أؤكد لكم أننا اذا استطعنا أن نكسب من الوقت عامين أو عامين ونصف عام ، فان قواتنا سوف تتمكن من احتلال مكانتها كأقوى وأحدث جيش في العالم أجمع .

ستالين يستعرض عضلات الجيش الأحمر :

أراد ستالين ألا يفوت فرصة احتفالات السوفييت بعيد « أول مايو » دون أن يظهر لهتلر مدى القوة العسكرية التى وصلت اليها روسيا لذلك فانه أمر قواده باعداد العدة لتنظيم أكبر استعراض شهدته روسيا للقوات المسلحة السوفييتية ، كما أمر « قوميسير الشعب » لشئون الدفاع بتحضير خطبة حماسية يضمنها الاشادة بهذه القوة ويحذر الجميع من الوقوف فى وجه جيش بلغ من العظمة ما بلغه الجيش الأحمر ٠

على أن استعراض العضلات ، والالقاء الحماسي الذى تعمده مولوتوف فى القاء خطابه ، لم يمنعا العلاقات الالمانية ـ السوفييتية من التدهور بشكل ملحوظ ، خصوصا لما بلغ ستالين أن التدهور قد حدد نهـــاية الشهر الجارى لبدء الهجوم الالمانى ضد الاتحاد السوفييتى للجمهوريات الاشتراكية ٠ ذلك أن ستالين ، الذى خشى أن يكون الخبر صادقا ، جمع فى يده السلطة التنفيذية وعين « مولوتوف » رئيسا لمجلس وزراء الاتحاد السوفييتى بجانب احتفاظه بوزارة الخارجية ٠

والواقع أن ستالين أراد أن يجعل من هذه المناورة سلاحا ذا حدين ، فهو من ناحية قد برر فعلته أمام زملائه من الوزراء بأن الموقف قد أصبح حرجا للغاية ـ بحيث اضطره ذلك الى ممارسة الاشراف على أوجه نشاط الحزب والدولة ، ثم انه أراد من ناحية أخرى أن يستميل هتلر ، ويخطب وده وكأنى به يهمس فى أذنه :

« ان هذه الحركة تظهر لك أنه من الممكن أن تصبح شريكا مع الاتحاد السوفييتى ، لأننى قد أصبحت الآن على رأس الحكومة وأستطيع أن أعطيك اجابات سريعة بشأن أية مسائل ترغب فى اثارتها ٠٠ »

ثم لكى يعبر ستالين ـ بطريقة فعالة ـ عن صداقته واعزازه للريخ الثالث ، أشار على حكومته بأن تعلن سحبها الاعتراف بالسفارات والبعثات الدبلوماسية البلجيكية والنرويجية واليوغوسلافية فى موسكو لأن الأقطار التابعة لها هذه البعثات الدبلوماسية لم تعد بعد ، أقطارا ذات سيادة ٠

من حفر حفرة لغريمه وقع فيها !

وحقيقة الأمر أن ستالين قد فعل ذلك لاعتقاده أن هـــذه الحركة سوف تساعد على عودة العلاقات الالمانية السوفييتية الى حالتها الطيبة الأولى ، ولكن النازيين لعبوا اللعبة نفسها ، وهكذا سقط ستالين فى الحفرة التى حفرها بيده لغريمه هتلر ، ووافق على وعد « ريبنتروب » بأن يحضر الى موسكو فى أوائل شهر يونيو ، كى يشترك فى المناقشات النهائية للمؤتمر الاقتصادى الروسى ــ الألمانى ٠

وان هى الا أيام قليلة حتى أبرق رجال المخابرات السوفييت الى أولى الأمر بأن الألمان : الذين ترددوا فى بدء حملة الغزو ضد الاتحاد السوفييتى نظرا لقسوة برد الشتاء ، قد بيتوا النية على أن يهاجموا روسيا قبل أن تبدأ شهور الصقيع والجليد ٠ وما ان سمع ستالين بذلك حتى أسرع الى قواده يحثهم على اقامة الاستحكامات للدفاع عن الوطن ، ولكنه ما لبث أن شـــعر بطمأنينة زائفة لما انقضى الوقت المحدد بدون وقوع الهجوم المنتظر ، وزاد من طمأنينته وشعوره بالرضا أن الألمان المخلصين أرسلوا الى روسيا قطارا حربيا محملا بالعربات المصفحة من مصانع « ســكودا » فضلا عن الأجهزة البصرية للغواصات السوفييتية ، كما أن ســـتالين الساذج ، وافق على زيادة العربات المخصصة لنقل الشحنات الألمانية ٠

وكانت اللعبة الألمانية غاية فى الحبكة والاتقان ٠٠٠ بحيث جعلت ستالين المخدوع يتخذ قراره بالسفر الى « سوتشى » للاستجمام وفى الثامن عشر من يونيو عام ١٩٤١ ، غادر ستالين العاصمة الروســية بعد أن عهد بشئون الدولة الى نائب رئيس مجلس السوفييت ، مقتنعا بأن مخاوفه ، التى طالما اقضت عليه مضجعه ، لم تكن الا اضغاث أحلام ، وان الالمان أهل اخلاص وثقة ٠

وسافر ستالين ٠٠ أجل : سافر قاصدا مكان الراحةوالاستجمام ، وأمسك التاريخ بالقلم ليسجل لستالين أشنع خطأ ، وأكبر غلطة ارتكبها فى حياته ٠٠ !

الفصل الرابع عشر

ستالين معنا

في الثاني والعشرين من يونيو عام ١٩٤١ ، تلقت روسيا أكبر ضربة من ألمانيا ، تحت اسم الحرب الخاطفة · وفى اليوم الأول من الحرب فقدت « الضحية » نحو ثلاثة آلاف طائرة من المقاتلات الروسية التى تم تحطيمها فى لمح البصر ، وفى الوقت نفسه تمكنت قاذفات القنابل الألمانية من اسقاط حمولتها · بعد شل حركة المدفعية الروسية المضادة للطائرات · والواقع أن الهجوم الخاطف كان ضربة قاسية لسلطة سيد الكرملين قبل أن يكون ضربة عنيفة للاتحاد والنظام السوفيتين ·

ذلك أن هجوم الالمان قد أشعل الفتنة التى كانت نائمة ، وأيقظ فى نفوس الشعب كل المشاعر الاليمة والذكريات المريرة التى حفرتها مخالب حكم الطاغية على القلوب الدامية ، التى لم تكن لتنسى أبدا صور الآباء والأمهات والأصدقاء الذين أودعوا السجون أو اختفوا الى الأبد ·

بل ان موجة التذمر التى أثارها الهجوم الالمانى ، ضد ستالين ، قد بلغت شأوا ينذر بالخطر فى مناطق كاملة مثل أوكرانيا ، والقرم ، وشمال القوقاز ، مما جعل بعض المطلعين على حقيقة الامور ، يتنبئون بأن الشعب السوفيتى سوف ينتهز الفرصة ويشهر الأسلحة التى فى يديه ضد ستالين ، ومن الواضح أن هذا التوقع قد تحقق تحققا تاما فى السنوات الأولى ، ولكن ستالين ما لبث أن تمكن من استعادة شعبيته بعد فترة لم تتجاوز السنتين ·

والذى حدث بالضبط ، أن ستالين الذى لم تفلح الاحداث والخطوب فى النيل من صلابته وافقاده أعصابه ، قد اختفى عن الأنظار عشرة أيام كاملة واستعرض الأحداث التى تواجهه فوجد أنه يمكن أن يثق فى الضباط الذين أنعم عليهم بتعيينهم فى مراكز ممتازة ، فى الوقت نفسه أدرك أن الهجوم الالمانى الخاطف قد يثير الشكوك حول مقدرته الشخصية على توجيه دفة السياسة الخارجية للاتحاد السوفيتى ، كما أن ستالين قد تحقق من أنه لابد أن يعلل غلطته الشنيعة بالطبيعة البشرية التى لا يمكن أن تبلغ حد الكمال ولا يمكن أن تكون معصومة من الخطأ ·

ستالين يضع خطة انسحاب الجيش وتدمير كل شيء ·

مما زاد من وقع المفاجأة المحزنة على ستالين ان العدوان الالمانى على الاتحاد السوفييتي قد اتبع فى اليوم نفسه باعلان ايطاليا الحرب على الاتحاد السوفيتى ، ومع ذلك فانه ما لبث أن استرد بعض سلامةأعصابه على أثر اتخاذ بريطانيا تلك الخطوة التى لم تكن متوقعة ، واعلانها - على لسان تشرشل - تقديم كل مساعدة ممكنة لروسيا ، أما المفاجأة السارة الثانية فقد تمثلت فى الاعلان الذى أصدره « سومنر ويلز » الامريكى ، ودمغ فيه هتلر بالوحشية ، واتجاه أمريكا الى الافراج عن أموال الاتحاد السوفيتى التى كانت مجمدة ، وليس هناك شك فى أن هاتين المفاجأتين قد كان لهما أثرهما الفعال فى رفع الروح المعنوية بين صفوف الشعب السوفيتى ، أما ستالين فقد آثر أن يتريث قليلا حتى تستعيد الجماهير رباطة جأشها وسلامة أعصابها ، ولما تبين له أن الشعب كله قد اتخذ قراره بأن يخوض المعركة لآخر قطرة من دم أبنائه ، عاد ستالين الى الظهور مرة أخرى معلنا أنه سيقود هذا الشعب الأصيل من ساحة القتال الى واحة النصر ، كما أعلن أن هذه هى الفرصة الذهبية لكى ينسىالشعب السوفيتى مرارة الماضى وويلاته ، وأن يثبت للتاريخ انه « ستالين البطل الصنديد » - لا ستالين الجبان الرعديد ، والطاغية المستبد الذى اختتم أيام عهده بالهزيمة والعار والذل ·

وفى غمرة هذه الحماسة التى ملأت قلبه ، عاد ستالين الى موسكو فى الثالث من يوليو عام ١٩٤١ ووجه الى الشعب السوفيتى من مكتبه بالكرملين هذا الخطاب التاريخى :

« أيها الرفاق ، والمواطنون ، والأخوة والاخوات والجنود وعمالقة البحار ، اليكم أيها الأصدقاء ··· اليكم جميعا أتحدث الآن فى هذه اللحظة الخطيرة - لحظة العدوان الهتلرى الغاشم على أرض وطننا الأم · »

« فرغم المقاومة البطولية وصمود الجيش الأحمر ·· ورغم الخسائر الفادحة التى أنزلناها بأقوى وحدات العدو الجوية التى حطمناها وقبرناها فى أرض المعركة ··· لا يزال العدو يواصل تقدمه الى الأمام كما أنه لا يزال يحشد المزيد من القوات المتربصة لنا على الحدود » ·

« ولكن كيف حدث ذلك ، كيف استسلم جيشنا الأحمر العظيم لقوات الفاشست فى عدة مدن روسية ؟ ، هل حدث ذلك لأن الجيوش

النازية الفاشية هى حقيقة جيوش لا تقهر كما يزعم الزاعمون من بطانة الفاشية وأذنابها ؟ • »

« ان التاريخ يظهرنا على أنه لم يوجد ، ولن يوجـــد ، على الاطلاق « جيش لا يقهر » ، وهذه القاعدة تنطبق بحذافيرها على الجيوش الفاشية ـ النازية » •

« على أن المرء قد يتساءل : كيف وافقت الحكومة السوفيتية عـلى ابرام ميثاقعدم اعتداء مع أوغاد أفاقينمن أمثال » هتلر » و «ريبنتروب» ؟

« ألم ترتكب الحكومة السوفيتية بذلك خطأ جسيما ؟

وأرد على هذا التساؤل فأقول : كلا •• وألف كلا •••

« ان ميثاق عدم الاعتداء هو اتفاق سلام بين قطرين • وعلى ذلك فانى أعتقد أن قطرا محبا للسلام لا يمكن أن يرفض مثل هذا الاتفاق مع دولة مجاورة حتى ولو كان رئيس مثل هذه الدولة فى خسـة هتلر أو وضاعة روبنتروب ••

« كذلك قد يتساءل المرء : ما الذى كسبناه من وراء ميثاق عـدم الاعتداء الذى عقدناه مع ألمانيا ؟

« والرد على ذلك أننا استطعنا أن نصون سلام بلدنا طوال ثمانية عشر شهرا كاملة ، كما حققنا لبلدنا فرصة لاعداد قواتنا لمواجهة العدوان الألمانى علينا ، وليس هناك شك فى ان ذلك كان كسبا لنا وخســارة للألمان الفاشيين •

« ثم ما الذى كسبته ألمانيا وما الذى خسرته فى تمزيقها هـــذا الميثاق وشن هذا الهجوم ضد الاتحاد السوفيتى ؟

« لقد استطاعت ألمانيا من وراء هذا العدوان أن تكسب لقواتهـا نصرا وهميا ومركزا اذا كان قويا الا انه قصير الأجل • أما من الناحيـة الأخرى فان الألمان قد خسروا خسارة سياسية فادحة ، بمعنى أنهم قد مزقوا القناع الذى طالما أخفى نواياهم وظهروا أمام العـالم كله عـلى حقيقتهم ـ معتدين استبد بهم جنون التعطش الى الدماء •

« غير أننا يجب ألا نخدع أنفسنا ، بالمظـاهر أو الحجج التى يراد بها تبرير أى شىء ، وعلينا منذ الآن أن نقرر الخطة ، وأن نتصور أقسى الاحتمالات وأشدها سوءا • ومن هنا فان جيشنا الاحمر اذا وجد نفسه

فى موقف لا يسمح له الا بالانسحاب والتقهقر ، فما عليه الا أن يدمر كل شيء فى المنطقة التى يزمع التخلى عنها . كما أن عليه أن يتلف كل التسهيلات التى يمكن أن يستفيد منها العدو ، مثل قضبان السكك الحديدية والمحركات ومخازن الحبوب والغلال والسيارات ومستودعات البترول ، أما المزارع الجماعية فعليها أن تنقل الماشية والأغنام من الحظائر فى المناطق التى هوجمت الى مناطق نائية حيث الأمان ، وفى الوقت نفسه يتعين علينا أن نحطم كل المواد ذات القيمة بما فيها المعادن غير الحديدية والوقود وغيرها مما يستحيل نقله .

« أما بالنسبة للمناطق التى تمكن العدو بالفعل من احتلالها ، فيجب أن تتشكل بها الكتائب السرية لشن حرب العصابات ، والمنظمات المدربة على التسلل والتخريب لمحاربة وحدات جيش العدو ، وتعطيل تقدمه عن طريق نسف الكبارى والطرق ، واضرام الحرائق فى الغابات والقاطرات ، اذ أنه من الضرورى أن نهيىء فى بعض المناطق ظروفا لايطيق العدو احتمالها أو الصبر عليها .

على اننا فى هذه الحرب ـ حرب التحرير ـ لن نقف بمفردنا ، لأننا سوف نحظى بعطف الشعوب الصديقة المخلصة فى أوربا وأمريكا ، بل واخواننا الالمان الذين يرزحون تحت نير الاستبداد والطغيان الهتلرى .

« ولن ينكر أحد أن معركتنا الشريفة من أجل حرية وطننا الأم ، انما هى جزء مكمل لنضال شعوب أوربا وأمريكا ، فى سبيل نيل حرياتهم واستقلالهم »

ستالين يفكر فى توسيع الجبهة :

كان ستالين على دراية كاملة بأن الأمل ضعيف فى انهاء الحرب ، لذلك فانه ركز جهوده على رفع الروح المعنوية لشعبه حتى يصمد أطول فترة ممكنة ، وخصوصا بعد أن تواترت الأنباء عن اقتراب العدو من العاصمة الروسية ، مما جعل ستالين يتجه الى أن يتولى شخصيا قيادة عمليات الدفاع بمجرد استيلاء الالمان على مدينة « خيمكى » على مسافة أربعة أميال من موسكو .

كذلك طلب ستالين من القوات السوفيتية ، فى مراكزها على خط النار ، أن تصمد للنهاية وألا تستسلم مهما يكن الثمن ، وفى الوقت نفسه

كان يتصـــل بقواده الكبار لرفع روحهم المعنوية بوعدهم بارسال المدد والنجدات في مدى ثلاث ساعات أو أربع على الأكثر !

بعد ذلكصدر البيان المشترك الذيوقع عليه مارشال «تيموشنكو» ، و « زوكوف » ، معلنين على الشعب السوفيتي ان الالمان قد تراجعوا أمام عزيمة موسكو واستماتتها في الدفاع عن نفسها • والواقع أن انتصـار السوفييت في معركة موسكو قد أظهر ستالين بمظهر القديس والمنقذ أمام الشعب في القطر كله ، يتساوى في ذلك الذين أحبوه ووثقوا به ، والذين ارتابوا فيه ، وهكذا كانت معركة موسكو ، نصرا شخصيا لستالين ، كما كانت نصرا كاملا للاتحاد السوفيتي •

وحينما سمع ستالين أن جند النازييعاملون الأسرىمعاملة وحشية قاسية في كل المناطق التي تمكنوا من احتلالها أسرع بارســال مذكرة احتجاج على وحشية الألمان الى كل الدول التي لاتنتمي الى المحور ، وكان هدفه من وراء ذلك أن يظهر للعالم كله ، وحشية الألمان أولا ، وأن يظهر لشعبه أيضا أن الهتلرية في حقيقتها ليست الا عبودية وتعذيبـا وذلا واهدارا لكرامة الانسان •

وكانت القوات السوفيتية مجهزة تجهيزا ضعيفا بالنســبة لجيش الألمان الذى اختاره هتلر من بين المدربين على القتــال تحت أية ظروف والذى كان مجهزا بأحدث الأسلحة ، ولذلك فان ستالين اتجه الى الضغط على بريطانيا والولايات المتحدة لفتح جبهة قتال أخرى في أوربا حتى يخف العبء الذى يقع بأكمله على كاهل القوات السوفيتية وحدها • ثم عاد ستالين بعد ذلك الى شعبه كي يحقنه بمصل مضاد للتشاؤم واليـأس ، ولم يكن هذا المصل في حقيقة أمره سوى اخبار الشــعب السوفيتي بالاتفاقية العسكرية الانجلو ــ سوفيتية ، وبالزيارة السرية التي قامبها مولوتوف الى بريطانيا والولايات المتحدة الامريكيةوبذلك استطاع ستالين أن يتفادى خطر الانهزامية ولكن الى حين •

ذلك ان القطاع الجنوبي لجبهة الدفاع السوفيتي كانت قد ظهرت عليها بوادر الانهيار والتفكك ، مما اضطر ستالين الى تكليف مولوتوف بأن يوجه نظر الحلفاء الى ان قدرة الاتحاد السوفيتي على المقاومة لايمكنأن تستمر الى الأبد ، كما طلب اليه أن يحذر الحلفاء من مغبة المبالغة فيتقدير قوة الاتحاد السوفيتي •

وحينئذ أوضح الرئيس الأمريكي روزفلت • على الرغم من اعترافه

بسلامة المطالب السوفيتية أنه لاداعي لفتح جبهة أخرى للقتال ، لأن هذه الجبهة موجودة بالفعل وممثلة فى الحرب البريطانية ضد « روميل » · لكن ستالين لم يكن لبرضى بهذا الرد ، واقترح أن تحاول الكتائب الأمريكية الثمانى الموجودة فى انجلترا ، بالاشتراك مع الكتائب الكندية والبريطانية وبمساندة القوات الجوية المشتركة ، غزو فرنسا ·

معركة ستالينجراد :

رد روزفلت على الاقتراح الستالينى باقتراح آخر يتضمن الدعوة الى اجتماع تشرشل وستالين ، والواقع أن رئيس الوزراء البريطانى قد رحب بالفكرة ووافق على السفر الى موسكو برفقتـــه المستر « افريل هاريمان » ·

وفى أثناء المناقشات والمباحثات الشخصية التى جرت فى موسكو، اعترف ستالين بالمشاكل والصعوبات التى تواجه فتح جبهة قتال ثانية، كما اتبع موقفا كريما حيال تشرشل ، ووافق لأول مرة على الرأى القائل باستحالة فتح جبهة ثانية على ساحل الاطلنطى ، وفى الوقت نفســـه أشاد بالاستعداد الطيب الذى أبداه روزفلت · ولكن ستالين لجأ الى سلاح المكر والدهاء حينما اشتدت وطأة القتال المرير ، كما قرر أن يقـــود « حربا بلا استراتيجية » بالاشتراك مع المارشال « زوكوف » الذى بزغ نجمه فى أثناء معركة موسكو ، وكان أن أرسله الىمعركة ستالينجراد فى أحلك ظروف المعركة وأقسى ساعات النضال ·

وحينما تأزم الموقف ولاحت بوادر الانهيار ظهر ستالين لفترة قصيرة على أرض المعركة وسرعان ما انتشرت عبارة « ستالين معنا » ! بين خنادق المحاربين ، وكان لهذه الكلمة وقع السحر فى نفوس الجنود الحمر الذين حاربوا القوات الالمانية بعزم جديد فى الخنادق وفى شوارع المدينة التى فرض عليها الحصار وفى الوديان وفوق التلال ، وفى الوقت نفسه أعلن ستالين أن الاتحاد السوفيتىعلى أبواب عهد جديد يتسم بالديمقراطية ·

أما النصر الحاسم فى معركة ستالينجراد فقد أضفى على ستالين هالة من المجد والشهرة ، كما أن مجلس السوفيت الأعلى قد أنعم عليه برتبة « مارشال الاتحاد السوفيتى » واعتبره « أعظم استراتيجى فى كل زمان ومكان » أما المارشال زوكوف فقد اعتبر النجم الثانى والبطل الذى يأتى فى قائمة الابطال بعد ستالين مباشرة ·

غير أن النصر الحاسم فى ستالينجراد وغيرها من قطاعات الجبهـــة لم يكن يعنى أن الخطر قد زال نهائيا عن الاتحاد السوفيتي ، وكان ستالين على دراية كاملة بهذه الحقيقة ولذلك كتب فى « البرافدا » مقالا بعنوان « لتكن أعصابكم من حديد » ، حاول فيه أن يحذر جماهير الشعب من مغبة الغرور والمبالغة فى النجاح والاستهانة بالعدو ٠

ثم لكى يستميل رئيس الوزراء البريطانى والحـــكومة البريطـانية اتجه الى مصادقة الرئيس روزفلت ، والواقع أن الصداقة القـوية التى جمعت بين رجلين تختلف طباعهما اختلافا بينا قد توطدت كثيرا ٠

كذلك قام ستالين بحل « الكومنترن » كى يثبت للرئيس الامريكى أن التعايش السلمى للاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الامريكية من الممكن أن يصبح حقيقة ملموسة ، وكان ستالين بارعا جدا فى هذه الحركة التى لقيت ترحيبا حارا من بريطانيا وأمريكا والسويد وتركيا والأقطـار المحايدة ٠ ومع ذلك فان هذه الحركة لم تكن سوى مناورة أحسن ستالين تدبيرها ، اذ أنه على الرغم من اعلانات ستالين المتكررة ، ظل « الكومنترن» كما هو ولم يتغير الا اسمه فقط ! وأصبح « الكومنترن » معروفا باسم « المؤسسة رقم ٦١١ » ، ومع ذلك فان رجال السياسة فى العالم الحر الذين خدعتهم الحيلة ، اعتبروا ستالين مخلصا وجادا فى وعوده ونواياه كما بدأوا يأملون فى ادخال تطويرات أساسية على الاهداف السياسية للسوفيت ٠

بيد أن ستالين لم يركز على السياسيات وحدها ، اذ أنه مالبث أن اشترك فى الاستعدادات لحملة الصيف عام ١٩٤٣ ، وقام بعدة زيارات لجبهة القتال مما رفع روح الجند المعنوية وضاعف من شهرة ستالين كبطل ارسلته العناية الالهية لينقذ الروسيا من ذل الاحتلال ٠ ومع أن ستالين كرس حياته لامور السياسة والاستراتيجية العسكرية الا أنه كانت له حياته الخاصة ، كما وجد متسعا من الوقت لمجالسة الفاتنات من راقصات الباليه والأوبرا ، فضلا عن انه اختـــــار « آنيا ماركوفانا » لتحل محل « روزا » التى اختفت فى أواخر صيفعام ١٩٣٨ ، ولكنهمالبث أن تخلص منها بترحيلها من موسكو بعد أن ضايقته بالغيرة من « مارفا كايندز » الموظفة الجديدة بالكرملين ٠

الفصل الخامس عشر

ونستون تشرشل يكرم ستالين

... وأخيرا ، وبعد الانتظار الطويل أتى اليوم الذى استطاع فيه الجيش الاحمر أن يقف على قدميه ، وأن يصبح جيشا مجهزا بأحدث الأسلحة قادرا على شن هجوم واسع النطاق على « الريخ الثالث » ، ومع ذلك فان « فورشيلوف » ومعه « تيموشنكو » قد أخذتهما الدهشة حينما أسرعا الى سيدهما « ستالين » يزفان اليه هذه البشرى ، فوجداه يرد عليهما بقوله : « شكرا » .. ! ولكننا لن نبدأ الهجوم ، بل سنترك للنازى تحديد ساعة الهجوم ومكانه ، وحينما يشنون هجومهم علينا ، يمكننا أن نتصدى لهم ونلقنهم درسا قاسيا ، ثم نتعقب فلولهم وننقل أرض المعركة الى قلب ألمانيا ، والذى يقع فى تصورى أن هذه الخطة سوف توفر لنا نحو نصف المواد الاستراتيجية التى قد نفقدها اذا بدأنا نحن بالهجوم » .. وفى الواقع أن خطة ستالين قد كانت تنطوى على حكمة وبصيرة نافذتين.

ولما تقدم الجيش الاحمر نحو الغرب كان ستالين قد بدأ فى التأمل فى المستقبل ، والنظر الى ماهو أبعد من ذلك . ومن هنا فقد استقبل فى مكتبه « الجنرال فون سايدتز » وجماعة من الضباط من الذين أسروا فى ستالينجراد ، ولقد قام هؤلاء بتأسيس اللجنة الوطنية لألمانيا الحرة «تحت اشراف زعيم الحزب الشيوعى الألمانى » أما هدف هذه اللجنة فقد كان يتلخص فى الاطاحة بالحكم الهتلرى وابرام اتفاقية سلام .

وحقيقة الأمر ، أن ستالين كان يعلم علم اليقين أن معظم جنرالات ألمانيا . يتوقون الى تقويض دعائم « الريخ الثالث » وعقد اتفاقية سلام مع لندن وواشنطون فى أسرع وقت ممكن ، وكان ستالين لايرغب بالمرة فى أن تكون كفة الانجليز والامريكان هى الراجحة ولذلك فقد قرر أن يسرع بوضع خططه الخاصة .

ستالين يهادن الكنيسة :

نظر ستالين حوله فوجد أن الأحوال على ما يرام ، وأن الوقت ملائم للدخول مع الحلفاء فى المباحثات النهائية ، واقناع الغرب بحسن نواياه . وهكذا ما ان انقضت أيام قليلة حتى كان ستالين قد بدأ أولى خطواته بالتقرب الى الكنيسة ومهادنة الدين ــ لأول مرة بعد الثورة ــ ومن ذلك أنه سمح بتنصيب بطريرك موسكو الجديد فى الكاتيدرائية الارثوذكسية

وليس هناك من شك فى أن هذه الحركة من جانب ستالين قد اسفرت عن نتائج سريعة حاسمة ٠

ذلك أن زعماء الكنيسة فى العالم الحر قاطبة قد أخذوا الأمـــور بظواهرها وخدعتهم المظاهر ، فاعتقدوا أن ســـتالين قد تخلى نهائيا عن أساليب القمع والاضطهاد ومعاداة الكنيسة ٠ كذلك اتجه ســـتالين الى مساندة تأسيس « اتحاد الضباط الالمان » الذى تكون بالفعل فى أثنـاء المؤتمر ، وعلى أثر ذلك وجه « الاتحاد » الجديد نداء قويا الى جنرالات المانيا وضباطها وجنودها ، موضحا لهم أن المانيا قد خسرت الحرب ، وان الجيش والشعب يستطيعان الاطاحة بالحكم النازى الغاشم ، وتشـــكيل حكومة جديدة تحظى بثقة الشعب وتأييده ٠

مقابلة فى طهران :

لما أدرك ستالين أن اللحظة المناسبة قد أزفت ، بادر على الفـــور بتوجيه الدعوة الى الرئيس الأمريكى روزفلت لزيارة موســـكو ، نظرا لعجزه عن مغادرة الاتحاد السوفيتى بحكم توليه منصب القـــائد الأعلى لقوات الجيش الأحمر ٠ لكن الرئيس الامريكى -بالطبع- لم يقبل الدعوة لأسباب تتصل بالكرامة الشخصية والمركز الأدبى ، وأخيرا تم الاتفاق على أن يجتمع الثلاثة الكبار : ونستون تشرشل ، وســـتالين ،والرئيس روزفلت فى طهران ٠

ولما تم لقاء طهران ، قام ونستون تشرشل باهداء بطل ستالنجراد « سيف الشرف » بالنيابة عن جلالة الملك جورج السادس ، وذلك فى أثناء الحفل الذى اقامته السفارة السوفيتية فى طهران والذى حضره الرئيس روزفلت وفورشيلوف والقائدان البريطانى والامريكى ٠

ومجمل القول أن نجم ستالين قد بزغ بزوغا تاما فى طهران ٠٠ وفى طهران أيضا ٠٠ شعر ستالين بأنه لم يعد فى حاجة للكفاح من أجل المزيد من المجد ، لأنه كان قد تربع على القمة ، وتفوق على سيده واستاذه « لينين » الذى مات ولم يحقق حلمه فى بذر نواة الثورة ، وفى طهران٠٠ حقق ستالين آخر أحلامه بأن أصبح أحد الذين يشاركون فى تشكيل العالم ورسم حدوده وأبعاده ٠٠ على حد تعبير احدى الصحف السوفيتية ٠

غير أن نشوة النصر ، لم تكن لتنسى ستالين حلمه القديم وتصميمه على فتح جبهة ثانية واسعة النطاق ، ولذلك بذل قصارى جهده لاغراء

ونستون تشرشل على انزال قوات بريطانية فى منطقة البلقان . وفى الوقت نفسه توسل الى الرئيس الامريكى الا يبخل بالمساعدة .

وهكذا استطاع ستالين أن يحقق جزءا كبيرا من حلمه ، وعقد مع تشرشل فى أثناء مباحثات موسكو ، اتفاقية « جنتلمان » . تقضى بابقاء اليونان منطقة مصالح بريطانية ، على أن تصبح دول البلقان الباقية ـ بما فيها وادى الدانوب حتى براتيسلافا ـ منطقة مصالح سوفيتية ، وبذلك كانت « مباحثات موسكو » من أهم العوامل التى غيرت مجرى الأحداث فى الحرب العالمية الثانية .

وبعد أن أنجز ستالين هدفه ، وتدارس المشاكل الهامة مع بريطانيا وأمريكا اتجه الى تأسيس نوع من التفاهم مع فرنسا ، وان هى الا أيام قليلة حتى كان الجنرال « ديجول » ومعه « بيدو » يهبطان من الطائرةالتى اقلتهما الى موسكو ، وبعد المناقشات مع ستالين ، أمكن التوصل الى عقد اتفاقية صداقة بين فرنسا والاتحاد السوفيتى .

غير أن ستالين قد شعر بأن كل هذه الاتفاقيات لم تكن لتحل المشاكل المتزايدة التى تتصل بفترة مابعد الحرب والتى قديستغلها «هتلر» اذا لم تتم تصفيتها على مستوى القمة ، ومن هنا استبشر خيرا حينما وافق السير « ونستون تشرشل » والرئيس الأمريكى على عقد الاجتماع الذى اقترحه ستالين ، وفى ذلك اليوم صرح للمقربين من مجلسه « انهيستطيع دائما أن يعتمد على صديقه الحميم الرئيس الامريكى » ، وأن تشرشل زميل عزيز يمتاز بالبصيرة السياسية والاستراتيجية النافذة ، وانه لمما يدعو للاسف العميق أنه بريطانى وليس روسيا .. !

أما « تشرشل » و « روزفلت » فقد اجتمعا فى مالطه ومنها طارا الى « القرم » حيث اجتمعا مع ستالين ومولوتوف ، وعرف هذا الاجتماع التاريخى « بمؤتمر يالتا » .

ستالين ... يستشعر الخطر :

لم يكن ستالين بالرجل الذى يشغله النصر والمجد عن ارسال بصره الى مكامن الخطر ، كذلك لم تستطع كل نشوة هذه الفترة السعيدة التى كللها النجاح أن تغسل فى نفسه مرارة استشعار الخطر ، والخوف من زملائه ورفقائه الذين قد يطيحون بحكومته القوية من أجل اقامة حكم جماعى يخلف دكتاتورية الفرد .

والواقع أن حاسته السادسة لم تخدعه أبدا ، اذ أن الدلائل كانت قد بدأت تشير حقيقة الى أن شيئا من هذا القبيل قد يقع بالفعل ، واصدق هذه الدلائل ، أن « مولوتوف » قد جهر بتذمره ، بعد أن كتمه عن الناس وأصبح منذ ذلك الحين لايتوقف عن التنديد بالحكم الدكتاتورى الذى جعل منه « دمية » تحركها أصابع الزعيم الأوحد ، وببغاء تكرر ما يمليه عليها سيدها .

أما الخطر الثانى فقد كان « زادانوف » الذى لم يعجبه موقف ستالين واستسلامه لمطالب الحلفاء الرأسماليين ، فضـــلا عن أن الرجل قد اتهم ستالين بالردة والانحراف عن طريق الاشتراكية ، واهمال الخط البلشفيكى الحقيقى .

وليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، بل ان آخرين قد ضموا صوتهم علانية الى « زادانوف » ولم يبق على ولائه لسيده الا « مالينكوف » .

فرانكلين روزفلت ... يموت وهو غاضب على ستالين :

بعد انفضاض « مؤتمر يالتـــا » بأيام قليلة أدلى « بولجانين » أمام أعضاء المكتب السياسى بهذا الاعلان الخطير :

« يجب أن تعلموا جميعا أن الدول الانجلو ـ ساكسونية لم تـكن لترضى بانضمام الاتحاد السوفيتى اليها ، لولا مصلحتها فى ذلك ومن أجل الدفاع عن النفس فقط .. وبمجرد أن يزول الخطر وتنتهى الحرب سوف ترون أن الاتحاد السوفيتى سيواجه محاولات جادة لعزله عن جمـــاعة الانجلو ـ ساكسون ..

« كذلك من المؤكد أن دول الانجلو ـ ساكسون سوف تحاول بكل وسيلة أن تفرض سيطرتها الاقتصادية والمالية والسياسية على ألمانيـــا الجديدة ، وليس هناك أدنى شك فى أن هذا سيشكل خطرا قائما يهـدد كيان الاتحاد السوفيتى » .

« ومن هنا فمن عين الحكمة والتعقل ألا نفرط فى التفـــاؤل ، وألا تخدعنا هذه المكاسب والانتصارات التى حققها الاتحاد السوفيتى ، لأننا قد نجد أنفسنا ـ فى غمضة عين ـ متورطين فى موقف لا نحسد عليه » .

« أما الفاتيكان ، فهو الخطر الثانى الذى لابد أن نعمل له كل الحساب لان الفاتيكان ـ بسبب العدد الهائل من الكاثوليك فى الاقطـــار التى

ستصبح مستقبلا داخل المنطقة السوفيتية ـ سوف يبذل قصارى جهده كي يعبىء الرأى العام الدولى ضد « موسكو » ٠

« ولذلك فاننا ، لكي نتغلب على كل هذه الاخطار ، ولكي نتفادى وقوع الكارثة وتكوين كتلة دولية معادية للاتحاد السوفيتي ، يجب علينا أن نمنع بكل قوانا توحيد المانيا » ٠

في ذلك الوقت كان ستالين رابضا في عرينه بمدينة « مينسك » يضع خطة الهجوم النهائى على جيش النازى ٠ والواقع أن ستالين لم يكن جاهلا بما دار في اجتماع أعضاء المكتب السياسى ، بل لقد كان يعرف كل كلمة تفوه بها « بولجانين » ولكنه آثر أن يغادر موسكو في هذه اللحظة تاركا عبء المسئولية في السياسات الداخلية والخارجية ، على أكتاف « مولوتوف » وحده ٠

أما أهم نتائج هذا الموقف السوفيتي الجديد فقد تمثلت أساسا في اهمال « اعلان أوربا المتحررة » الذى اتفق عليه الاقطاب في « مؤتمر يالتا » والذى نص على أن تجرى انتخابات حرة في الأقطار الواقعة داخل المنطقة السوفيتية ٠

ولقد أدى هذا الخرق الصارخ لاتفاقية « يالتا » الى تبادل الرسائل بين الرئيسين الامريكي والسوفيتي ، كما أن العلاقات الشخصية بينهما كانت قد أصبحت على وشك الانفصام ٠

ذلك أن الرئيس روزفلت وان لم يفقد الأمل في التأثير على الحكومة السوفيتية عن طريق ستالين ، الا أنه ـ لسوء حظ ستالين نفسه ولسوء حظ العالم كله ـ قد ترك مسائل السياسة ومتاعب الحكم ورحل الى العالم الآخر ٠ وكان موت روزفلت نقطة تحول حاسمة في العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والغرب ، لأن احدا لن يجرؤ على أن ينكر أن الرئيس الامريكي الراحل كان قادرا على التأثير على الرجل الفولاذى ٠

الحرب السياسية ٠٠ والحرب الايديولوجية ٠٠ بعد الحرب العالمية الثانية:

لما انقضى شهر أو أقل على وفاة روزفلت كانت نار الحرب العالمية الثانية قد أوشكت على أن تخبو نهائيا ، وحينئذ تمنى ستالين لو أن صديقه روزفلت قد عاش ليرى هذه اللحظة العظيمة التى تحققت بفضل جهوده واخلاصه ٠ ومع ذلك فان ستالين لم ير في انتهاء الحرب العالمية الثانية الا انتهاء للرحلة الأولى ، فقد كانت هناك حروب أخرى يجب

احراز النصر فى ميدانها وهى الحرب السياسية ضد الحلفاء ، ثم الحرب الايديولوجية داخل المعسكر الشيوعى .

أما بالنسبة للحرب الأولى ، فان الاتحاد السوفيتى كان قد تعهد فى أثناء مؤتمر « يالتا » بأن يدخل الحرب ضد اليابان بعد مرور الشهر الثالث على انتهاء الحرب الاوربية ، وفجأة ، أعلنت الحكومة الامريكية انتهاء العمل بقانون « الاعارة والتأجير » ومع أن ذلك قد حدث نتيجـــة لخطأ ارتكبته وزارة الخارجية ومع ان الرئيس الامريكى « ترومان » قد أبطل الالغـاء مرة واحدة الا أن « مولوتوف » أصر على أن يستغل هذا الحادث لصالحه .

لقد بذل مولوتوف قصارى الجهد لاقناع الشعب السوفيتى بأنه لم تكن هناك براهين قوية تدلل على ان الامريكيين كانوا جادين حينمـــا وعدوا بالوقوف الى جانب الروس فى معركة حاسمة . الأمر الذى اضطر الرئيس « ترومان » الى أن يكلف « هارى هوبكنز » بالسفر الى موسكو لاحياء « ميثاق يالتا » ولكن المباحثات التى جرت بين مبعوث « ترومان » الذى أصرت جماعة مولوتوف ـ بولجانين ـ خروشوف على أن تســـميه مبعوث الرجل الميت (أى روزفلت) ، وبين الزعماء السوفيت ، لم تكن ناجحة بسبب الخلاف الذى كان قد بدأ ينشب بين مولوتوف ، الذى عبر عن ارتيابه وشكوكه فى منظمة الأمم المتحدة ، وبين ســـتالين الذى فسر الشعب السوفيتى حركته بأنه يحاول أن يثبت أن الاقطار المتحررة سوف تدخل مع الاتحاد السوفيتى فى تحالف أبدى لا ينفصم ، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يظهر أن صداقته مع الدول الغربية سوف تبقى الى الأبد .

وفى سبيل نجاح هذا المظهر بادر ستالين بارسال زوكوف ـ البطل الثانى فى الاتحاد السوفيتى ـ الى فرنكفورت ـ اميان ، برفقة «فيشنسكى» حيث استقبلا استقبالا رائعا كان على رأسه الجنرال ايزنهاور ، والفيلد مارشال « مونتجمرى » .

وفى الوقت نفســه كانت الاســتعدادات تجرى على قدم وســـاق للتحضير لاجتماع الثلاثة الكبار فى بوتسدام التى غصت « برجال بريا » وضباط البوليس السرى الذين وصـــلوا الى المدينة لحماية ستالين ، وتم افتتاح مؤتمر الكبار فى السابع عشر من يوليو عام ١٩٤٥ .

وفى أثناء المؤتمر أظهر ونســـتون تشرشل والرئيس ترومان ميلا شديدا للتمسك « بميثاق يالتـــا » وتلاقت الآراء بشكل ملفت للنظر لما

أظهر ستالين الميل نفسه · ولكن مولوتوف وبولجانين وخروشوف أبوا · الا أن يعارضوا ستالين الذى تفاهم مع الغربيين الامبرياليين وأظهر العطف على مطالبهم وأهدافهم وميولهم ·

ثم سقطت قنبلة « هيروشيما » فأخذ ستالين يعمل على مواجهـــة الموقف الجديد ·

وحقيقة الأمر أن ستالين كان محتاجا الى مواهب الممثل البارع فى تمثيل دور الذى لا يبالى بهذا السلاح الرهيب وكأنه يريد أن يقـــول للغرب : لا تعتقدوا أن قنبلتكم الذرية معناها انتهاء مخاوفكم من تفـــوق الجيوش السوفيتية ·

أما مولوتوف فلم يوافق ستالين على الاكتفاء بالتظاهر بعدم المبالاة وطلب اليه ، بمساندة بولجانين وخروشوف وغيرهما ، أن يتخذ موقفـا أكثر تشددا حيال الاستعماريين الذين توصلوا الى أسرار القنبلة الذرية ، غير أن ستالين تمكن من اقناع مولوتوف وأنصـــاره بأن الوقت لم يحن للمخاطرة بتحدى الدول الغربية أو التصدى لها ·

ان ستالين ، الذى عرف القنبلة الذرية ومغزى امتلاكها ، كان يعلم أن الولايات المتحدة وبريطانيا قد يأتي عليهما وقت تصبحان فيه فى مركز يمكنهما من املاء أوامرهما وفرض ارادتهما عليه · ومن هنا كان تصميم ستالين على أن يلحق بالغرب فى ميدان التجارب الذرية مهما يكن الثمن وتحت أية ظروف وبأية طريقة ، حتى لو عن طريق التجسس وبث العيون وسرقة أسرار هذه القنبلة ·

ومما ضاعف من حزن ستالين أن جواسيسه ، الذين بثهم لسرقة أسرار القنبلة وعلق عليهم آمالا عريضة ، عادوا اليه بخفى حنين وفشلوا فى معرفة كل شيء عن القنبلة الرهيبة ·

بيد أن ستالين ، الذى كان يعرف لكل مشكلة علاجا ، ولم يستسلم لليأس دائما أسس « لجنة الابحاث الذرية » ونصب نفسه رئيسا لها ، ثم لكي يسبق الزمن أصدر أوامره بخطف العلماء وخبراء الذرة من بريطانيا وتولى « بريا » شخصيا مهمة تدبير حملة الاختطاف ، ومضت أيام كانت مليئة بالتوترات والمغامرات ، وبعد مدة وجيزة كانت مراكز الأبحاث الذرية تغص بالخبراء الالمان المخطوفين الذين أكرهوا على العمل ليل نهار وراء الستار الحديدى الذى أقامه ستالين حول مراكز ومعامل البحوث

الذرية ٠٠ ومع هذا فان كل الجهود المضنية التى بذلها السوفييت لم ترهب الغرب ولم تحرك منه ساكنا ٠

وفى ذلك الوقت كانت العلاقات بين ستالين ومولوتوف قد تحسنت تحسنا ظاهرا ، خصوصا بعد أن سمح له سيده بأن يطلق يده فى شئون الدول التابعة وفى ذلك الوقت أيضا صرح ستالين لمولوتوف « ان الشعب السوفييتى لن يؤخذ بعد اليوم على غرة ولن تجرؤ دولة أيا كان شأنها على مهاجمة هذا الشعب أو الاعتداء عليه » ٠٠ كما أكد له أن ماتم فى ميدان الأبحاث الذرية ليس الا جزءا بسيطا من المخطط الضرورى الذى يجب التوســـع فيه بحيث يغطى ميـــادين البحث العلمى بصفة عامة وتطوير الصناعات الوطنية ٠

الفصل
السادس
عشر

زوجاته ... الاخريات

فى هذه الفترة كان ستالين يعمل بجد وكأنه قد عاد الى أعوام فتوته وشبابه · وانكب على عمله بقلب لا يمل وعزيمة لا تفتر · غير مهتم بأن يريح جسمه ساعة أو ساعتين ، ولقد ساعده على ذلك · أنه كان يتمتع بقوة بدنية وصفها أصدقاؤه وأطباؤه بأنها كقوة الثور ، ان من الثيران لما يسقط اعياء اذا لم ينل قسطا من الراحة ونصيبا من النوم ·

ولما ظهرت على ستالين بوادر الاعياء من فرط الاجهـــاد نصـــحه أطباؤه بأن يستجم لمدة ستة أشهر ، ولكنـه سخر من نصــــيحة الطب بقوله : « اننا معشر الجيورجيانيين · قد وجدنا فى هـذا العـــالم لنعيش طويلا · سواء أرحنا أجسامنا أو واصلنا العمل ليل نهار · »

« ولذلك فان هذا الاعياء الذى لحق بى من فرط العمل لن يرسلنى الى القبر · فضلا عن أن وقتى لا يتسع للاستجمام أو الخلود الى الخمول والبلادة · »

غير أن ستالين كان فى هذه الفترة قد استبد به الحنين والشوق الى « عش الزوجية » وكان أن وقع اختياره على « يفجينا بافلوفاكى » لتشاركه فى العش الهادىء ولكن بدون تقيد بالزواج الرسمى · والحق ان اختياره كان موفقا للغاية اذ أن مشاجرة واحدة لم تعكر صفو العش الســـعيد طوال ستة أعوام كاملة ، وذلك بفضل طبيعة « يفجينا » الهادئة وغضهـا الطرف عن علاقات زوجها بالأخريات لأنها كانت لها مغامراتها العاطفية وصلاتها التى لم تكن سرا · مع « كولشاكوف » الياور الخاص لزوجهـا والذى كان يتمتع بشباب مكتمل وشخصية جذابة استولت على مشاعرها منذ أول لقاء ومما ساعد العشيقين على التمتع بعشقهما الى أبعد حد ممكن أن تردد العشيق على منزل ستالين لم يكن بحكم طبيعة العمل ، يدعو الى الريبة أو الشك فى أمرهما · حتى كان هذا اليوم المشئوم حينما عاد ستالين الى شقته ــ على غير العادة ــ فوجدهما متلبسين بالجريمة · وماكان منه الا أن أمر بتجريدهما من ملابسهما وانهال عليهما بصقا وضربا حتى نزفت الدماء من أنفيهما ثم أرسل فى طلب « بريا » · الذى نفذ تعليمات سيده · وأطلق عليهما الرصاص داخل سجن البوليس السرى ·

وكان هذا الحادث صدمة أفقدت ستالين البقية الباقية من ثقته فى

النساء فقرر أن يتزوج مرة أخرى مكتفيا بالعشيقات طوال عدة سنوات كما طلب الى سكرتيره الخاص أن يعد قائمة بأسماء الجميلات ممن يعملن باللجنة المركزية كي يقضي مع كل واحدة منهن فترة معلومة داخل حجرة خاصة ألحقها بمكتبه وفى هذه الحجرة غرق ستالين ، زير النساء ، فى بحر الخطيئة الى شعر رأسه كما كان كثيرا ما يطلب الى فتاته أن تتجرد من ملابسها قطعة قطعة وترقص أمامه وهو جالس على مكتبه يتفحص جسدها ٠ « ويطرقع » أصابعه بانتظام على أنغام الموسيقى الحالمة المنبعثة من « البيك أب » الفاخر ٠ فاذا أشبع عينيه الجائعتين طلب اليها أن تسبقه الى حيث يستكمل متعته ٠

وهكذا ظل ستالين على حالة من الفسق والفجور والمتعة الحرام حتى نوفمبر من عام ١٩٥٢ حينما وجد نفسه فجأة وقد شعر بالحنين مرة أخرى الى حياة زوجية هادئة ٠ وفى هذه المرة وقع اختياره على « ليدا ميخائيلوفنا فافرينا » لتكون شريكة حياته ٠ بلا زواج ٠ وعاش ستالين مع زهرة مجتمع جورجيا عيشة مليئة بالحب الصادق خالية من النزوات بعد أن قطع زير النساء كل علاقاته مع العشيقات وأقفل باب حجرة الملذات الملحقة بمكتبه ٠ ولكن هذه التوبة لم تكن بسبب حبه لزوجته الجديدة وانما بسبب تقدم العمر والشعرات البيض التى كانت قد تسللت الى فوديه ٠ وهكذا ظل ستالين على وفائه لزوجته حتى آخر أيام حياته ٠

الفصل
السابع
عشر

أصدقاؤه . . . وخصومه

مع أن كراهية « مولوتوف » لستالين كانت على وشك التلاشى بمرور الأيام الا أنه لم يدخر وسعا فى أن يكسب حب الشعب السوفييتى وان يظهر أمامه بمظهر الزعيم الجديد الذى يمتاز على ستالين بالشباب والحيوية والمرونة وحقيقة الأمر أن ستالين لم يكن غافلا عن مناورات « مولوتوف » ولكنه أراد أن يتركه يسعى الى حتفه بقدميه ليكون عبرة لمن أراد أن يعتبر ٠

وهكذا ظل ستالين هادىء الأعصاب رابط الجأش يرقب أعداءه بحذر بالغ ولكن بلا ضجة وبلا ضوضاء حتى كانت تلك الجلسة الصاخبة التى انعقدت فى مكتب ستالين للنظر فى قضية الجنرال « فلاسوف » ، الذى اتهم بمحاولة تشكيل قوة محاربة روسية تقاتل فى صف الألمان ، وذلك فى أثناء أيام الأسر التى قضاها فى ألمانيا ٠

وفى هذه الجلسة حاول « كالينين » و « كاجانوفتش » و «ميكليس » اقناع ستالين بحفظ القضية ومراعاة الخدمات الجليلة التى أداها « فلاسوف » للوطن الأم ٠ ولكن ستالين أصر على ضرورة اعدامه شنقا هو ومن معه من الأنصار وكان له ما أراد برغم أنف كالينين (الذى تجاوز الحد المعقول وانتقد تصرفات ستالين انتقادا لاذعا ٠ فى أثناء الاجتماع السرى الذى تم بينهما فى مكتب ستالين) ٠

على أن ستالين ، الذى لم يكن يحب سماع النقد من أى أحد أيا كان شأنه ، ما لبث أن أصدر أوامره باجراء الاستعدادات المألوفة التى تتبع فى تشييع جثمان شخص مثل « كالينين » رئيس الاتحاد السوفييتى ٠ وبعد صدور هذا الأمر بيوم أو يومين وفى الساعة المحددة بالضبط قطع راديو موسكو اذاعته العادية معلنا للعالم أجمع أن « كالينين » قد توفى فجأة على الرغم من اكتمال صحته وفى اليوم نفسه احتجب ستالين عن الأنظار أسبوعا كاملا وظهرت على تصرفاته عصبية وقلق ردهما موظفو الكرملين وحراسه الى الحزن الذى أصابه نتيجة لفقد « كالينين » ٠ أما ستالين نفسه فقد ردهما الى اجهاد أعصابه نتيجة لضغط العمل عليه وانفراده بتحمل مسئولية القرارات الخطيرة التى يتخذها ٠

مناورة ستالين لتحويل أنظار الشعب عن المشاكل الخطيرة :

كان ستالين شديد الحرص على أن ينتهز أية فرصة لتحويل أنظار الشعب عن المشاكل الخطيرة • لذا أصدر تعليمات تقضى باقامة احتفالات ومهرجانات وطنية لاحياء ذكرى تأسيس موسكو • وفى الحال وجهت الدعوة لثلاثين شخصا من الأجانب لتمثيل دولهم فى الاحتفال الكبير •

كذلك كان ستالين شديد الحرص على أن يقفز بالصناعة السوفييتية قفزة ذات بال • وأن يجعل من الجيش الأحمر أقوى جيش فى العالم اجمع ، ولذلك فقد رأى ان لا مناص من الاستعانة بالخبراء الأجانب وتطعيم الصناعات التقليدية الروسية بصناعات أخرى حديثة يكون لها تأثيرها فى انماء الصناعات الوطنية •

وبعد تفكير طويل ودراسة مستفيضة أدرك ستالين أنه اذا حصل على الخبراء التشيك والصناعات الهامة التشيكية لكان من المؤكد أن يحققوا المعجزات بمساعدة الخبراء الألمان وجهود الخبراء الروس • فضلا عن أن ستالين قد أعجب بصفة خاصة بمصانع « شكودا » ومصانع «برن» لانتاج الاسلحة والذخيرة وغيرها من المصانع الكبرى التشيكية ، ولذلك قرر أن يستفيد من هذا البلد الصغير فى قلب أوربا والذى كان دائما نصير الحقوق الديموقراطية وحامى حمى الحرية • وبعد أيام قليلة وجه ستالين الدعوة الى العلماء والخبراء الفنيين التشيك للعمل فى الاتحاد السوفييتى وفى الوقت نفسه حصل على مصانع تشيكية كاملة نقلت من تشيكوسلوفاكيا الى روسيا ومعها كل احتياجاتها من العمال المهرة والفنيين الاكفاء والآلات العملاقة الحديثة وقد رحب الشعب السوفييتى ترحيبا حماسيا بتشيكوسلوفاكيا كدولة تابعة أخرى •

فرحة لم تتم :

لكن فرحة ستالين بالحصول على دولة تابعة جديدة لم تتم • اذ أن هذا الحدث السعيد قد أتى فى فترة شهدت توتر – ان لم يكن تدهور – العلاقات مع الدول الغربية • وبلغ هذا التوتر ذروته على أثر فرض الحصار المعروف على برلين وفشل هذه الخطة – على الرغم من أن ستالين قد عزل برلين عزلا تاما عن العالم الخارجى • وذلك باغلاق الطرق الموصلة الى برلين ولكن الدول الغربية تمكنت من انقاذ برلين عن طريق اقامة الجسر الجوى • وجدير بالذكر فى هذا المقام أن ستالين قد أخفى هذه الحقيقة

المرة على شعبه وشعوب الأقطار الشيوعية التابعة · واتجه بدلا من ذلك الى اتباع سياسة جديدة تمكنه من تفادى الحرب ·

حينئذ اجتمع ستالين مع أولى الأمر المقربين من مجلسه · بقصد معالجة الموقف الخطير واتخاذ خطوة ناجحة لتهدئة الأزمة التى بلغت منتهاها فى برلين · ومع ذلك فانه لم يكن يرغب فى الظهور أمام الحلفاء بمظهر الذى لا يمانع فى التنازل عن أى شىء · لئلا يفسر ذلك على أنه ضعف أو اعتراف بالهزيمة · وأخيرا ، وبعد مناقشات حادة مع مولوتوف استقر قراره على أن يرفع الحصار بسبب التوتر الدولى والمتاعب المتزايدة فى الاتحاد السوفييتى ورغبة ستالين فى التفرغ لخطط الاصلاح الداخلى ·

وكان هذا القرار بمثابة البداية · بداية فترة تميزت بتحسن الأحوال الاقتصادية نسبيا · واجراء تغييرات بعيدة المدى فى كل قطاعات الحياة السوفييتية وان كانت الظروف العامة فى الاتحاد السوفييتى لم تتحسن تحسنا ملموسا · ومما لا شك فيه أن ستالين كان قد بدأ فى التخلى عن سياسة المجازر الرهيبة وحملات التطهير الدموية · ومع هذا فقد ظل على حاله مصرا على الاحتفاظ بالحكم · راغبا عن التساهل مع أى معارضة · أيا كان شكلها ومصدرها · وهذا ما يفسر لنا هجومه العنيف الذى شنه على حكومة « تيتو » واتهامها بالدخول مع بريطانيا فى مفاوضات سرية ·

على أن العداء الصريح الذى دب بين ستالين وجوزيف بروز تيتو ـ الذى طالما لقب بتلميذ اللينينية الستالينية الأمين ـ قد كانت له آثاره الخطيرة على الدول التابعة · اذ قد أدى ذلك الى تكاثر حالات العداء مما اضطر « بريا » ومن ورائه رجال البوليس السرى الى مواصلة العمل ليل نهار لاسكات الألسنة التى هاجمت ستالين والتخلص من المعارضات القوية فى أكثر من منطقة ، ومما زاد الأمر تعقيدا أن أخبار الخلاف الستالينى التيتوى كانت قد انتشرت بين المواطنين السوفييت على الرغم من الرقابة على الصحف ، والاجراءات الأخرى التى اتخذت لاخفاء النزاع · وبلغ الأمر غايته لما هاجم ستالين خصمه تيتو هذا الهجوم الشخصى ونعته بالجهل والخيانة والثرثرة الكاذبة ، كما اتهمه بتقليد ونستون تشرشل · والتسلى بشرب الخمر مع راندولف تشرشل فى « بارى » أثناء أن كانت الجيوش السوفييتية تتعقب قوات النازى وتطردهم بعيدا عن يوغوسلافيا · فضلا عن أن « تيتو » قد اتهم بسرقة ضيعات ومزارع الملك بطرس وانفاق

الاموال على عشيقته وايداع أموال فى بنك سويسرا استعدادا للهرب الى هناك بمجرد سقوط حكومته ٠

لكن هذا الهجوم الذى شنه ستالين لم ينجح فى تحقيق التـأثير المطلوب على الشعب السوفييتى ٠ الذى أبدى كثيرا من التشكك فيما يتعلق بالاتهامات الكثيرة التى ظهرت فى يوم وليلة ، كما أن المواطنين السوفييت لم يصدقوا أن يصبح « تيتو » فجأة وغدا خائنا جبانا ولصا ٠ وهو من كان بالأمس من أئمة الشيوعية وقطبا من أقطابها المبرزين ٠ بل ان فريقا من الناس قد اعتبر « الكومنتورم » هو المسئول الوحيد عن هذه الصداقة القوية التى جمعت بين ستالين وتيتو ردحا طويلا من الزمن ٠

ومما زاد الطين بلة ٠ ان عشرات الألوف من ضباط الجيش الأحمر حينما عادوا من الخارج نكثوا بالعهد وأخلفوا الوعد الذى قطعوه على أنفسهم بألا يذكروا للشعب أى تفاصيل عن الانتصارات والمكاسب التى شاهدوها فى الخارج ٠ وكان ذلك كفيلا بالقضاء على اعتقاد الجماهير السوفييتية أن ظروف الحياة والمستويات المعيشية للطبقة العاملة فى الاتحاد السوفييتى أسوأ كثيرا من الظروف فى الأقطار الرأسمالية ٠

وكان على ستالين أن يبحث عن مخرج من هذه الورطة ٠ ولم يكن هذا المخرج سوى المزيد من حركات التطهير ٠ ثم البحث عن كباش فداء ، وفى هذه المرة لم يقنع ستالين بتقليد هتلر ومحاكاة ساليبه بل التجأ الى طريقة البوليس القيصرى فى معاداة اليهود ٠ وعلى الفور أصدر توجيهات لاجتثاث شأفتهم من الاتحاد السوفييتى وقد مكنته هذه السياسة من لوم اليهود على كل شىء فضلا عن اقفال أبواب المسرح اليهودى والصحيفة الناطقة بلسان اليهود ٠ ودار النشر اليهودية فى « موسكو » و « منسك » حيث كانت تتجمع الجاليات اليهودية ، أما فى روديسيا وغيرها من موانى البحر الأسود فقد شحن اليهود فى السفن حيث نقلوا الى سيبريا ٠ وطرد الاساتذة والعلماء اليهود من مناصبهم الجامعية واتخذت خطوات مماثلة حيال المؤلفين والملحنين والفنانين والكتاب اليهود ، ولما وجد ستالين أن حركة تطهير الشعب السوفييتى من العناصر اليهودية لم تحقق النتائج المنشودة ٠ اتجه بالتالى الى تعميم الحركة وتوسيعها بحيث تغطى كل قطاعات الشعب وطوائفه ٠ غير أن حركة القمع الجماعى والاعتقال بالجملة وأسلوب التشريد والسجن والنفى والتعذيب والقتل قد أسفرت عن تزايد الشعور بالسخط ٠ ووجد ستالين نفسه فى موقف لا يحسد

عليه حينما أفلت الزمام ولم تعد أحكام الموت ترهب الشعب أو تمنعه من التعبير عن تذمره ٠

وكان على ستالين ، ازاء هذا الموقف الذى ينذر بالخطر ، أن ينتحل الأعذار وان يعلن براءته من هذه الاجراءات العنيفة التى نظمتها ودبرتها عناصر غير مسئولة لابد أن تعاقب على جرائمها البشعة ٠ ثم لكى يثبت للشعب صدق أقواله ونواياه أصدر تعليمات كانت تقضى بالغاء القبض على رجال الحزب الذين اشتركوا فى تدبير هذه الاجراءات وتنفيذهـــا ثم حوكموا بعد ذلك وصدر الحكم باعدام بعضهم وسجن الباقين مددا طويلة ، وبعد أن تم ذلك بالفعل أعلن ستالين على الشعب أنه سوف يتولى بنفسه تحقيق مطالب الشعب والسهر على مصالحه ٠ وبفضل هذا الوعد استطاع ستالين أن يسترد مكانته فى قلوب الشعب السوفييتى الذى اعتبره الأب الرحيم لكل الشعب الروسى ٠

ستالين يقود الشعب الى حياة الرخاء :

تميزت هذه الفترة بتحسن الأحوال الاقتصـادية وتخفيف حدة الضغط السياسى ٠ وبازاء هذا التحسن النسبى سبحت جماهير الشعب السوفييتى بحمد ستالين وشكره على نعمه ٠ كما أنهم بدأوا فى الاعتقاد بأن ستالين قد أنجز وعده وأوفى بعهده الذى قطعه على نفسه ٠ ولم يعلموا أن الكماليات والسلع الفاخرة مثل علب « السلامون » والغذاء المحفوظ التى طرحت فى الأسواق والتى شاهدتها أعينهم لأول مرة لم تصنع للاستهلاك المحلى وانما صنعت أصلا لأسواق فيما وراء البحار ، ولكن ستالين فوجىء بأن هذه الأسواق قد أوصدت أبوابها فى وجـــه السلع المصنوعة السوفييتية ، وعلى ذلك فلم يكن هناك من ســـبيل الى تسويقها وبيعها فى الخارج ، وهذا هو السبب الحقيقى الذى أدى الى طرح هذه السلع فى السوق المحلية ٠

كذلك كان ستالين يعلم علم اليقين أن الوفرة المصطنعة لهـــذه السلع لن تستمر طويلا ٠ ولذلك أصدر تعليماته برفع الاجور والمهـايا وزيادة دخل الطبقة المحظوظة ٠ والذى شجعه على اتخاذ خطوة كهذه انه كان واثقا من أن المستفيدين الرئيسيين من هذه التعديلات لن يكونوا من العمال وانما من الخبراء والمهندسين ومن على شاكلتهم ٠

على أن ستالين ، كعادته دائما ، لم يكن ليجد فرصة مناسبة كهذه دون أن يستغلها استغلالا دعائيا على الوجه الأكمل ٠ لذلك قرر أن يعد

خطابا تاريخيًا يوضح فيه الخطط والمشروعات المستقبلة بالنسبة للاستهلاك المحلى والخارجى ، ولكنه لسبب ما لم يرد أن يلقى بنفسه هذا الخطاب ليظل بعيدا عن الأضواء ، أو يتدخل ـ عند الضرورة أو عندما تلوح دلائل عدم الرضا عن أى شيء ـ معلنا أن هذا الذى حدث كان نتيجة تهور بعض العناصر غير المسئولة • وانه سيتولى بنفسه اصلاح الخطأ ومعاقبة الذين ارتكبوه •

وفكر ستالين • وأمعن فى التفكير محاولا الاهتداء الى شخص يتولى القاء البيان التاريخى • ولما كان غير راغب بالمرة فى أن يكون هذا الشخص هو « مولوتوف » الذى قد ينتهز الفرصة ويكتسب شعبية • لهذا فقد وقع اختياره على « جورجى مالينكوف » نائب رئيس مجلس الوزراء وعضو المكتب السياسى • ومما جعل ستالين لا يتردد فى اختياره ان « مالينكوف » لم يكن معروفا للعالم الخارجى والدول الأخرى • وكان ستالين بارعا فى خطته موفقا فى اختياره الى أبعد الحدود وبعد مرور أيام قليلة على القاء الخطاب أمام مجلس مدينة موسكو • كانت الاحتفالات الشعبية قد عمت أرجاء البلاد وشاركت أقطار أوروبا الشرقية فى الاحتفال بالمناسبة السعيدة ، مناسبة بلوغ ستالين عامه السبعين من عمره المديد كما أن مجلس السوفييت الأعلى أنعم عليه بوسام لينين • تقديرا لخدماته الجليلة وجهوده العظيمة من أجل تقوية وتنمية الاتحاد السوفييتى وبناء صرح الشيوعية وتنظيم وتدبير تشكيلات كان لها الفضل الأول والأخير فى التصدى للغزاة الألمان وتحطيم الامبرياليين اليابانيين •

وفى الاجتماع الذى انعقد فى مسرح « بولشوى » بالعاصمة الروسية احتفالا بهذه المناسبة • وقف ستالين يتلقى التهانى من « ماوتسى تونج » الزعيم الصينى • « وتولياتى » زعيم الحزب الشيوعى الايطالى • « وراكوزى » نائب رئيس مجلس الوزراء المجرى • وغيرهم من زعماء الأحزاب الشيوعية الأجنبية ، كما تلقى برقيات التهنئة القلبية من البانديت نهرو • وغيره من رؤساء حكومات الدول الأخرى مثل فرنسا واستراليا وايطاليا والنرويج والسويد والدانمرك وفنلندة •

وفى اليوم نفسه أعلن مجلس السوفييت الأعلى انه قد أصدر مرسوما بتخصيص جوائز باسم ستالين • تهدى بصفة سنوية فى عيد ميلاد الزعيم السوفييتى البطل الى من يستحقها من الشخصيات فى كل بلاد العالم بغض النظر عن جنسياتهم ومعتقداتهم الدينية أو السياسية • تقديرا لخدماتهم الجليلة من أجل محاربة أنصار الحروب • والحفاظ على السلام ضد أعداء السلام والأمن الدوليين فى كل مكان •

الفصل الثامن عشر

الوصية الأخيرة

يبدو أن ستالين فى أواخر أيامه كان يعانى من احساس غريب بالخوف من أخطار جديدة تهدد حكمه وزعامته ، ولذلك كلف مجلس السوفييت الأعلى بأن يصدر مرسوما باعادة العمل بعقوبة الاعدام فى حالات الخيانة العظمى والتجسس والتخريب · وبموجب هـــذا المرسوم الجديد أصبح ستالين و « بيريا » فى حل من عهودهما التى كانا قـد قطعاها على أنفسهما بالتخلى عن اجراءات ما قبل الحرب وأساليب الاعدام بالجملة ·

وكانت المدة القانونية لمجلس السوفييت الأعلى قد أوشكت على الانتهاء ولذلك اتجه الى القيام بمناورة يكون لهـــا تأثيرها الملائم فى نتائج الانتخابات العامة القادمة ، ومن هنا سخرت أجهزة الدعاية والاعلام لتوضيح حقيقـــة هامة هى أن هذا المرســـوم قد صدر بناء على طلب الجمهوريات السوفييتية ، واتحاد النقابات ، ومنظمات الفلاحين ·

أما ستالين ، الذى رشح نفسه عن دائرة موسكو ، فانه على غير العادة لم يلق أى خطابات عامة طوال الحملة الانتخابية ، ومع ذلك فقد أعلنت لجنة الانتخابات المركزية أن ستالين قد حصل على ٩٨ر٩٩٪ من أصوات الدائرة الانتخابية ، وعلى أثر اعلان نتائج الانتخابات العـامة تشكلت الحكومة الجديدة التى لم تكن الا « صورة طبق الأصل » للحكومة السابقة ·

أطماع ستالين ··· فى الشرق الأقصى :

فى ذلك الوقت كان ستالين قد أصبح شديد الحرص على أن يمد سيطرته الى الشرق الأقصى ، أما بالنسبة للصين فانه قد عاد الى التكتيك الذى اتبعه فى العقدين الأولين من القرن ، والذى يقضى بمساندة الحركة الشيوعية الصينية ، عن طريق امداد الحركة بالأموال اللازمة ، والحاق الشيوعيين الصـــينيين بمدارس لينين فى موسكو ، وارسال الروس المدربين الى الصين ليتولوا توجيه الحركة هناك ·

أما بالنسبة « لكوريا » فان ستالين أراد أن يجعل من هذا القطر دولة شيوعية من الدرجة الأولى ، لذلك فانه بدأ فى الاعداد لتنفيذ هذه الخطة بمجرد تمكنه من تثبيت مركزه فى الشرق الاقصى بمعاونة الرفقاء

الصينيين ، وكان أن انتهت هذه الاستعدادات باندلاع نار الحرب المسماة بالحرب « الكورية » لكن ستالين قد وجد انه غير قادر على ارغام العالم الحر على الانحناء لرغباته واطاعته ، لهذا عقد اجتماع وزراء الخارجية لبلاد « الكومينفورم » وجمهورية ألمانيا الديموقراطية ، فى شهر أكتوبر من عام ١٩٥٠ بمدينة براغ ، بقصد مناقشة احتمالات تأسيس منظمة تنافس « منظمة » هيئة الامم التى لم يستطع ستالين أن يسخرها لمصلحته وخدمة أغراضه وأطماعه ، ولكن ستالين فوجىء بحقيقتين :

الحقيقة الأولى : أن الاجتماع الذى علق عليه آمالا عريضة لم يستطع أن يحقق الا نتائج بسيطة للغاية ٠

ثم المفاجأة الثانية وهى أن المزيد من المتاعب قد بدأ فى الظهور داخل الكرملين ذاته بسبب « ميكليس » الذى كان فى مقدمة أنصار ستالين ومعاونيه ٠

والذى حدث بالضبط ، أن « ميكليس » كان زير نساء ، له جيش كبير من العشيقات والمحظيات ، كما أنه قد استغل منصبه ، كوزير للتفتيش ، وقدم للفنانين ومخرجي الأفلام ونجوم المسرح ، الذين هم من أصل يهودى ، كل مساعدة ممكنة ، مدفوعا الى ذلك بتعصب شديد لبنى جنسه من اليهود ، بل ان « ميكليس » قد تحمل وحده مسئولية اعانة المسرح اليهودى ــ بصفة رسمية ــ والى هنا والأمر يكاد يكون طبيعيا ، لولا أن مدير المسرح اليهودى قرر أن يخرج مسرحية « الملك لير » لشكسبير ، وعلى أثر ذلك شن بعض أعضاء المكتب السياسى حملة تشهير ضد « ميكليس » الذى أيد عرض المسرحية الرجعية ٠ ومع ذلك فقد استطاع « ميكليس » بمعاونة ستالين أن يفرض ارادته وحققت مسرحية « الملك لير » رقما قياسيا اذا استمر العرض لعدة أسابيع بناء على رغبة الجماهير ٠

ولقد كان ستالين يعتز بصداقة « ميكليس » كما كان يثق بآرائه الى حد كبير ، ولكن هذا الاعتزاز بالصداقة والوثوق بالآراء قد تحول فجأة الى مقت وكراهية شديدين ، وذلك على أثر موقف جرىء عبر فيه « ميكليس » عن سخطه على السياسة المتشددة التى تتسم بالعداء والتى يتبعها ستالين فى معاملاته مع الدول الاجنبية ، وليت « ميكليس » قد اكتفى بذلك بل انه ذهب الى حد المطالبة بشىء من الحرية لأفراد الشعب السوفييتى وشعوب الأقطار التابعة ٠

حينئذ فقد ستالين أعصابه واستبد به الغيظ ، فاتهم « ميكليس » بالتخريف وضعف العقل نتيجة لتقدمه في السن ، وعلى الفور طرده من منصبه كوزير للتفتيش ، بعد أن أعلن على الشعب أن « ميكليس » قد استقال من الوزارة بسبب اعتلال صحته وعجزه عن الاضطلاع بالمهام الوزارية • وبعد أن تمكن ستالين من التخلص من صديق الأمس وعدو اليوم ، أصبح الجو خاليا ومعدا للجولة الستالينية الثانية ضد الدول الغربية ، وبعد أيام قليلة كان « جروميكو » قد فرغ من تسليم السفراء الغربيين – الامريكي ، والبريطاني والفرنسي – في موسكو ، مذكرات تقترح عقد اجتماع على مستوى وزراء الخارجية لمناقشة مسألة نزع السلاح اقليميا فيألمانيا ، ولكن المواقف المتشددة التي اتخذها الدبلوماسيون الغربيون أحبطت الخطط الستالينية ، مما اضطر ستالين الى تحضير خطاب تاريخي ضمنه خط السياسة الخارجية السوفييتية ، والموقف الدولي ، وكعادته دائما في التملص من المسئولية ، أسند مهمة القاء الخطاب التاريخي الى « بولجانين » •

مؤامرة الأطباء ••• والقتل بمساعدة الطب :

لما وجد ستالين أنه لن يتمكن من تحقيق مطلبه بالدعوة الى عقد مؤتمر رباعي بشأن المسألة الالمانية ، قرر أن يجعل من « مؤتمر السلام العالمي » المزمع عقده أداة مسخرة لاهدافه ، وكانت أول خطوة في هذا الاتجاه أن تمكن من تغيير مكان انعقاد المؤتمر ، وهكذا نقل المؤتمر الى « وارسو » بدلا من « شفيلد » •

لكن « تيتو » أراد أن يستغل هذه الحركة ، ويعرض بالاتحاد السوفييتي كمحاولة للرد على الهجوم الذى شنه « مولوتوف » من وارسو ضد الزعماء اليوغوسلافيين الذين وصفهم بأنهم « عصابة من المجرمين الذين استولوا على الحكم بالارهاب وسفك الدماء وأساليب الفاشست في القمع والردع » •

وكان « تيتو » على أتم استعداد لرد الصاع صاعين ، فأعلن أن الشعب اليوغوسلافي قد حصل على حريته بيده وبفضل نضاله ، وليس بفضل الجيش الأحمر ، كما زعم ستالين ومولوتوف • ثم مضى الزعيم اليوغوسلافي فأوضح أن الشعوب في ألبانيا وبلغاريا والمجر ورومانيا وبولندة وتشيكوسلوفاكيا قد خسرت من أبنائها الكثيرين ممن فضلوا

الاستشهاد والموت على مهادنة الروس والسكوت على جرائمهم البشعة وسفك دماء الأبرياء ٠

كان من الطبيعي اذن أن يشعر ستالين بالخطر ، والقلق بسبب هذه الاتهامات من ناحية ، ثم بسبب الدلائل التى أصبحت تشير الى انتشار روح التذمر والتمرد بين صفوف الشعب السوفييتي نفسه من ناحية اخرى ، وتزايدت هواجس ستالين ومخاوفه بشكل كبير فى صيف عام ١٩٥٢ لأن الموقف قد تدهور تدهورا خطيرا بحيث لم يعد أمامه سوى طريقة واحدة أثبتت نجاحها فى الحالات السابقة المماثلة وهكذا اضطر ستالين الى بدء حملة تطهير واسعة النطاق تحولت فى نهاية الأمر الى مجزرة دموية رهيبة ، ولكن المجزرة لم تنجح فى تحقيق النتائج المرجوة ، ولذلك فكر ستالين فى مؤامرة اشتهرت فيما بعد « بقضية الأطباء » ٠

وفى اليوم المحدد وفى الساعة المحددة ، نفذت وكالة « تاس » السوفييتية،ومعها راديو موسكو ، تعليمات ستالين،فأعلنت أن المسئولين قد اكتشفوا أن بعض كبار أطباء الكرملين ، الذين هم من أصل يهودى ، قد دسوا السم لاثنين من الزعماء السوفييت الذين كان من المعتقد أن موتهما كان طبيعيا ٠ كما أنهم دبروا جرائم أخرى بدس السم البطىء المفعول فى الأدوية التى يعالج بها كبار ماريشالات الجيش وقواده ثم مضت الوكالة معلنة أن المتهمين الذين اعترفوا بجريمتهم ليسوا سوى عملاء مأجورين تقاضوا أتعابهم وثمن جرائمهم نقدا من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ٠ أما الدولة الاخيرة فقد شرحت الموقف على لسان وزير خارجيتها قائلة :

يبدو أن القاء القبض على عدد من الاطباء اليهود واتهامهم بدس السم لبعض الشخصيات الروسية ليس فى حقيقته الا خطوة ثانية فى الحملة السوفييتية الحالية ضد اليهود ٠٠٠ وان أنكر المسئولون السوفييت هذه الحقيقة فانهم لن ينكروا أن لهم سابقة فى هذا الاسلوب ، اذ أنهم قد سبق أن اعلنوا فى أثناء حركة تطهير عام ١٩٣٧، ان «مكسيم جوركى» الكاتب الكبير كان ضحية « القتل بمساعدة الطب » ولكن هذا محض افتراء ٠

أما ستالين فلم يعبأ بهذا التصريح الرسمي أو غيره واستمر فى المجزرة الكبرى التى دبرها لكل اليهود ، وبلغت هذه المجزرة ذروتها

ومنتهاها فى « اوكرانيا » ، حيث افتن ستالين فى أساليب الابادة واجتثاث شأفتهم من الاتحاد السوفييتى كله ٠

لكن هذا البرنامج الوحشى لابادة اليهود ، فى الاتحاد السوفييتى قد أثار ثائرة اخوانهم وبنى جنسهم فى اسرائيل ، كما أدى الى قطع العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفييتى واسرائيل ، وذلك على أثر القنبلة التى ألقاها الاسرائيليون على دار المفوضية السوفييتية فى « تل أبيب » فى احدى أمسيات شهر فبراير عام ١٩٥٣ ، مما تسبب فى تحطيم جزء كبير من مبنى المفوضية واصابة زوجةالوزير السوفييتى وأحد موظفى المفوضية بجروح ، ولقد كانهذا الحادث سببا كافيا لتوسيع نطاق الحملة ضد اليهود ومضاعفة عدد المعتقلين منهم واعدام الكثيرين رميا بالرصاص وتشريد قاطنى الريف من الأطفال والنساء ونفيهم وطردهم من البلاد ٠

بل ان دكتاتور الكرملين كلف « بريا » ومعاونيه المخلصين بالاسراع فى اجراءات الابادة والتعجيل بسفك دماء اليهود فى أقصر مدة ممكنة ٠

وأخيرا ، اقترح لازار كاجانوفتش ، فى أثناء اجتماع مكتب الرياسة الذى انعقد فى مطلع شهر مارس عام ١٩٥٣ أن تشكل لجنة خاصة للنظر فى قضية الأطباء ومحاكمة الذين ارتكبوا أو دبروا جرائم القتل بمساعدة الطب ، كما طالب ستالين بأن يصدر أوامره بتشريد واعدام اليهود السوفييت ٠

ولما وافق كل أعضاء مكتب الرياسة بالاجماع على مقترحات « كاجانوفتش » فيما عدا « بريا » ، وخروشوف ، كان من الواضح أن ستالين سوف يطلق كل طاقات حقده وغضبه من عقالها ، ولكن عاصفة من التوتر ما لبثت أن عمت جو الاجتماع ، وذلك بسببالمناقشة الحادة التى جرت بين « بريا » وصاحب الاقتراح الذى طلب من « بريا » أن يستقيل من منصبه على الفور ، ثم أخرج بطاقة عضويته فى الحزب وصاح فى وجه ستالين قائلا : « انظر ما أنا فاعل بها » ـ ثم مزقها وألقى بها فى وجه ستالين الذى أسرع لتوه الى « الجرس » كى يستدعى حرسه الخاص ٠ ولكن يدا امتدت وأسرعت تجذب ستالين من كتفه فما كان منه الا أن اختل توازنه وسقط على الأرض ، وارتطم رأسه بحافة المنضدة ، ومرت لحظة كأنها الدهر ارتعدت فيها فرائص الحاضرين خوفا من انتقام ستالين الذى نهض متحاملا على نفسه وعلى وجهه دلائل الشر ٠ وقد طلب ستالين كأسا من « البراندى » فبادر « مولوتوف » وناوله

الكأس ولم يتأثر ستالين بالجراح التى أصابت جسده ، لأنه كان يتمتع على الرغم من تقدم سنه بقوة بدنية خارقة للعادة ، وانما الذى آلمه وتأثر به حقا ، تلك الجراح التى أصابت قلبه فى الصميم لما وجد أعز أصدقائه وأقرب الناس اليه ، يثورون ضده ويتخلون عنه ، ويلقون فى وجهه بقصاصات الورق ولا يتورعون عن تهديده والوقوف ضده ومصادقة أعدائه ومعارضيه •

كانت هذه الجراح اذن ـ لا جروح الجسد ـ هى التى تسببت فى الانهيار الذى أودى بحياة ستالين ، الذى حز فى قلبه أن يفقد فى أواخر أيامه القدرة على أن يسيطر على معاونيه ورفقائه فى الكرملين •

واغرورقت عينا صقر جورجيا بالدمع لأول مرة ، بل لقد انتحب يومها وبكى ـ حتى أن « بريا » تركه ، ليستدعى الطبيب ، ظنا منه أن سيد الكرملين قد أصيب بمكروه ، ولكن ستالين صاح فيه متوسلا ألا يستدعى أحدا وطلب من الحاضرين أن يتركوه وحده ولم يتخلف سوى « بريا » وماليكوف •

وما أن أفاق ، ستالين من حالته تلك حتى بادر رفيقه متسائلا :
« من منكم أعطانى كأس « البراندى » الذى شربته وأنا فاقد الوعى ؟ » وعندئذ أجاب بريا الذى كان قد رأى مولوتوف وهو يعطى الكأس لستالين •

« ان الذى أعطاها لك هو فياشيزلاف ميخائيلوفتش » •

ـ ستالين : « أرنى الزجاجة من فضلك •• بل أسرع وأرنيها لأن ذلك ضرورى ••• ضرورى جدا » •• وتكرر صياح ستالين ولكن الزجاجة كانت قد اختفت ••• !

ستالين متخاذلا : « والآن فلتصغوا الى كل كلمة أقولها .. لأن كلماتى قد تكون آخر كلمات أقولها لأى أحد • لقد دنت الساعة ولم يبق من العمر الا ساعات أو أيام بحسب مفعول السم الذى دسوه فى كأس الخمر » •

ـ وحينئذ قاطعه « بريا » متسائلا : « ولكن كيف عرفت ذلك وكيف تأكدت من أن يدا قد امتدت بالسم تدسه لك ؟ » .

ـ ستالين : هل تحتاج الى دليل أقوى من زجاجة الخمر التى اختفت ، لو انهم لم يضعوا السم لتركوا الزجاجة فى مكانها ؟

— مالينكوف : « يجب أن نستدعى لك طبيبا فى الحال » .

— ستالين : ليس هناك من يستطيع ان يفعل لى شيئا ، فقد نفذ القضاء ، وانتشر السم فى دمى ، فلا تضيع وقتنا الثمين وتناقش أشياء لا يمكن تغييرها » .

وحينئذ استمر ستالين فى حديثه المطول عن الزعماء السوفييت موضحا فى أطناب ان « مولوتوف » ينفرد بذكاء خارق للعادة ، فانه الشخص الوحيد الذى يستطيع حمل الأمانة ، نظرا لخبراته العريضة وتجاربه الطويلة ، وحسن تقديره للأمور ، وصرامته المعهودة ، واصراره ومثابرته ، وهنا استدرك ستالين قائلا :

« ولكن يجب الا يصبح زعيما للشعب السوفييتى ، لا لأنه لايتمتع بشعبية كبيرة ، ولا لأن الشعب لن يسير وراءه كما سار ورائى ، ولكن لأنه أخطر من عرفه الاتحاد السوفييتى » .

أما « كاجانوفتش » فقد وصفه ستالين بأنه صورة باهتة الألوان والظلال «لمولوتوف» ومع هذا فانه درة غالية فى جبين الاتحاد السوفييتى .

وأما « فورشيلوف » فانه ليس سوى دمية ، وحينما وصل ستالين الى الحديث عن « بولجانين » و « خروشوف » قال وعلى وجهه علامات الأسى البالغ :

« انه لمن دواعى الأسف أن يصبح هذان الرجلان اللذان رشحهما الحزب لخلافة «فياشيزلاف ميخائيلوفتش» مجرد أداتين فى يده يحركهما كيفما يشاء ويريد .

ولكن ستالين على الرغم من هذا النقد اللاذع لشخصية خروشوف أوصى بألا يطرد من الحزب بل نصح بأن يتم اختياره سكرتيرا عاما للحزب ولم ينس ستالين ان يتحدث عن رفيقيه الحاضرين فأوضح ان « بريا » خير من يصلح لمنصب مدير « ادارة البوليس السرى » بالاضافة الى اشرافه على الأبحاث الذرية ، ومع هذا فان ستالين لم يتردد فى أن يوضح أن الكفاءات والصفات التى يتمتع بها « بريا » لا تكفى لاختياره خلفا له ، ثم أورد أسباب ذلك فقال :

أولا : ان الشعب قد لا يريد أن يحكمه رئيس البوليس السرى .

ثانيا : ان وجود « بريا » فى البوليس السرى سوف يجعله أكثر اطمئنانا — وهو فى العالم الآخر — لأنه سيشعر بانه قد مات وترك فى

الاتحاد السوفيتي رجلا قويا يستطيع أن يبعد « مولوتوف » عن الحكم ، كما أن وجود « بريا » فى البوليس السرى سيكون فى حد ذاته ضمانا كافيا لاستمرار المبادىء والتعاليم التى وضعها وجاهد من أجلها « لينين » وهو ــ أى ستالين .

وبعد أن فرغ ستالين من حديثه عن « بريا » نظر الى « مالينكوف » وبادره بقوله :

« أما أنت فعليك أن تقلل من الخمر التى تعبها عبا ، والا فانك قد تتجرد من ارادتك وتنضم الى مجموعة الدمى التى تحركها أصابع « مولوتوف » وحينما تقلل من الخمر عليك أن تستعد لتأخذ مكانى بعد الرحيل ، ولتذكر دائما أن تكون متيقظا وافتح عينيك جيدا لأن « خروشوف » سيكون سكرتيرا عاما للحزب · وما ان اختتم ستالين كلماته حتى أشار الى « مالينكوف » و « بريا » ان يتركاه وحيدا ، ولما احتجا عليه بضرورة وجود حرس حوله لحراسته أجاب ، وقد علت وجهه ابتسامة ــ باهتة :

« لم أعد بحاجة الى من يحمينى من الخطر لأن الخطر نفسه قد أصبح فى داخلى وانتشر فى أوصالى مختلطا بدمى » ·

وخرج « بريا » و « مالينكوف » تاركين سيد الكرملين وصقر جورجيا ينتظر النهاية ، وانقضى يومان ولكن ستالين لم يمت كما كان يتوقع ، واستطاع أن يقاوم السم الذى يسرى فى دمه أربعة أيام ، وأخيرا وبعد مقاومة عنيفة من جانب ستالين وجهود مضنية من جانب الطب الحديث ، عرف الناس أن ستالين « الذى لايقهر » ، « القائد » « المعلم » « الذى يدعو المخلوقات الى الحياة » ــ مخلوق آخر بين المخلوقات، وقع له مايقع لسائر المخلوقات ، اذ أنه فى الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين من مساء الخامس من مارس عام ١٩٥٣ ، توفى ستالين ، وكانت وفاته مثل حياته ، لغزا محيرا وسرا يكتنفه الغموض والظلام ·

على أن الوثيقة الوحيدة التى يمكن الرجوع اليها لمعرفة مادار داخل الكرملين فى اليوم الأول من شهر مارس عام ١٩٥٣ ، كانت هى الوثيقة التى دونها « لافرنتى بريا » وارسل صورا منها لاصدقائه · المقربين فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا والمانيا الشرقية ، مشفوعة بتعليمات مشددة تقضى بألا تقرأ هذه الوثيقة أو تذاع الا بعد موته ·

وبعد أن تحقق الشرط ومات ستالين قام أصدقاؤه بترجمة الوثيقة الى اللغات الروسية والأكرانية والمجرية والبولندية والالمانية ولغة السلاف ، ولأول مرة عرف العالم الخارجي محتويات الوثيقة التى وقع عليها بعض زعماء الكرملين الذين كانوا موجودين فى مكتب ستالين فى الساعات الأخيرة والذين شهدوا بأن « مولوتوف » هو الذى دس السم لستالين ، ولكن قصة « بريا » كانت مثار جدل كبير وموضع شك من جانب الكثيرين .

وكان على العالم الخارجى أن يصدق راضيا أو كارها هذا البلاغ الرسمى الذى اشتركت فى اصداره اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ومجلس الوزراء والمجلس الأعلى للسوفييت :

« توقف عن الدق قلب الرفيق الملهم حامل رسالة لينين ، الزعيم الحكيم ، والمعلم الأول للحزب الشيوعى والشعب السوفييتى .. جوزيف ستالين » .

وفى الساعة السادسة من صبيحة اليوم السادس من مارس عام ١٩٥٣ بدأ التغير المفاجىء يظهر على مدينة موسكو ، وفى لمح البصر كانت شوارع المدينة الضخمة قد غصت بأسراب طويلة من « سيارات اللورى » التى أخذت تتدفق من كل حدب وصوب ، وعلى مقاعد هذه « اللوريات » كان جنود « بريا » يجلسون فى ملابسهم ذات اللونين الأزرق والأحمر وقد أمسكوا بمدافعهم الرشاشة الخفيفة ، كما لحقت بهم بعد ذلك السيارات المصفحة يسبقها عجيجها وأزيزها الذى يصم الأذن ، وكان من الواضح أن « بريا » قد وضع يده على كل المداخل والطرق المؤدية الى العاصمة ، كما لم تكن هناك كتيبة واحدة تابعة لقوات الجيش الأحمر النظامى .

أما الشعب الذى صدمه النبأ الأليم فقد خرج عن بكرة أبيه وتجمهر عند بوابة سياسكى فى انتظار خروج جثمان ستالين ، ولكن قوات الأمن الداخلى أغلقت الميدان الاحمر حتى لايتدفق اليه المزيد من الناس ، ثم بدأت تجلى المتجمهرين بالتدريج ، وحينئذ ظهر ضباط الأمن الذين اندسوا بين صفوف الشعب وهم يصيحون فى لهجة تخلو من الأمر : ايها الرفاق ان التجمهرات والتجمعات لاتناسب طبيعة هذه اللحظة التاريخية الحاسمة التى تمر بها البلاد .

الفصل التاسع عشر

الميت المحروم · الذى جرموه
حتى من الراحة الابدية!.

بعد أربعة أيام من وفاة ستالين ، أعلن الحكام الجدد انتهاء الحداد عليه ، وقد أعلن انتهاء الحداد بعد اغلاق ضريحه مباشرة ، وطلب من الناس أن ينصرفوا الى أعمالهم ، ومع ذلك وعلى الرغم من أوامر الزعماء الجدد ، لم تتوقف جماهير الشعب عن الحج الى الميدان الاحمر ، والوقوف ساعات طويلة تحت الثلج المتساقط والبرد الذى يشل الأطراف ، انتظارا لدخول البقعة المقدسة حيث يرقد « القديسان » الخالدان فى التابوتين البلوريين وهكذا كان شبح ستالين ينمو ويكبر بسرعة مخيفة ، جعلت « خروشوف» يفكر فى وسيلة للتخلص من ستالين الميت بعد أن تم التخلص من ستالين الحى ٠

خروشوف ٠٠٠ يعلن الحرب على شبح ستالين :

قرر خروشوف أن يبدأ الحملة ـ حملة التشهير ضد شبح ستالين ولكنه أشفق على نفسه من ثورة الجماهير التى كانت قد وضعت ستالين فى مصاف القديسين ، لذلك قرر أن يبدأ حملته على مراحل مهد لها بالهجوم على « تقديس الفرد » والتبشير بعهد جديد يتسم بالمساواة بين الحـاكم والمحكوم ، ولكن جماهير الشعب لم تصدق كلمة واحدة مما سمعته عن ستالين بل ان هذا الهجوم المستتر ، قد أتى بعكس النتائج المرجوة من حيث أن الشعب قد اتهم خروشوف بالخروج على أبسط قواعد الاخـــلاق ومهاجمة « القديس » وهو يرقد فى مثواه الأخير ، وكان على خروشوف أن ينتظر طوال ثمانى سنوات كاملة لكى يبدأ أول هجــــوم صريح على الدكتاتور الذى حكم الاتحاد السوفيتي بالحديد والنار ردحا طـــويلا من الزمن ٠

وأخيرا لاحت الفرصة الذهبية فى أثناء مؤتمر الحزب الشيوعى الثانى والعشرين الذى انعقد فى موسكو بتاريخ ١٤ من اكتوبر سنة ١٩٦١ ، وفى هذا المؤتمر اتهم ستالين علنا وعلى مسمع من أعضــــاء المؤتمر وعددهم ١٦٤٥ بأنه كان مسئولا مسئولية كاملة عن المجازر الدموية التى شـهدها الاتحاد السوفييتى وبأنه قد دبر حملات الاعتقال بالجملة وملء الزنزانات والسجون بعشرات الألوف من الابرياء واكباش الفداء ، واخيرا تجويع الشعب السوفييتى وحرمانه من خيرات بلاده ٠

واستغرق خطاب خروشوف التاريخي سبع ساعات كاملة استعرض اثناءها مخازي العهد الستاليني ببلاغة نادرة ومحا ، أو حاول أن يمحو ، صورة ستالين ·

وكان على الحكام الجدد ، لكي يحققوا أغراضهم ويكملوا مؤامرتهم على الميت الذي حرموه حتى من الراحة الأبدية ، أن يتبعوا هذه الحركة المعادية للستالينية ، بالخطوة التالية وهي تطهير الحزب الشيوعي الروسي من العناصر الستالينية من أمثال « مولوتوف » و « كاجانوفتش » و « مالينكوف » و « فورشيلوف » ، كما ان خروشوف لعب الدور الأول بالاشتراك مع الجيش الاحمر في القضاء على « لافرنتي بريا» مدير البوليس السري في عهد ستالين ·

وفي عام ١٩٥٥ أجبر «مالينكوف» على الخروج من الحكم وذلك بسبب اقتراحه التحول من الصناعات الكبرى الى الصناعات الخفيفة المنتجة للسلع الاستهلاكية ، وبعد عام آخر طرد الزعيم القديم « مولوتوف » من منصب وزير الخارجية وذلك بسبب اقتراحه سياسة مهادنة يوغوسلافيا وتمكن خروشوف بعد ذلك من الحصول على تأييد اللجنة المركزية في استبدال الأعضاء المطرودين (مولوتوف ومالينكوف ، وكاجانوفيتش) بغيرهم ممن يثق فيهم ، كما نجح في الحصول على موافقتها على زيادة عدد أعضاء مكتب الرياسة وجعله يتكون من ١٥ عضوا ليتمكن من ضم عدد آخر من مؤيديه ، وبذلك أصبح خروشوف دكتاتورا يخلف ستالين·

خروشوف ··· يواصل الحرب ضد شبح ستالين :

استيقظ أهالي برلين الشرقية ذات يوم فوجدوا أن تمثال ستالين الضخم قد اختفى في أثناء الليل ، أما في براغ فان العمال قد تمكنوا من نسف تمثال ستالين الذي صنع من الجرانيت والذي كان يزن ٠٠٠ر١٨طن

اما في جورجيا ـ مسقط رأس ستالين ـ فان الأهالي قد رفضوا أن تمتد يد بسوء الى آثار ستالين الذي لم يحبوه طوال أيام حياته وحدث الشيء نفسه في قطرين من أقطار العالم الشيوعي وهما الصين الشيوعية وألبانيا ، حيث رفض شعبا البلدين اطاعة أوامر خروشوف وتوجيهاته بالقضاء على الأسطورة الكبيرة التي حكمت الاتحاد السوفييتي بالحديد والنار وهكذا ظل « ماوتسي تونج » تلميذا مخلصا لستالين لايترك فرصة تمر دون أن يشيد بأمجاد ستالين وأفضاله على العالم الشيوعي·

ماذا قال باسترناك عن ستالين :

لم تستطع حملة التشهير الواسعة النطاق التى شنها خروشـــوف ضد الميت الحى ستالين ، أن تمحو صورة ستالين منقلوب ملايينالسوفييت الذين فضلوا ـ رغم أنف خروشوف ـ ألا يعلموا الحقيقة ، وأصروا على أن يبقوا على ايمانهم بأكبر أسطورة عرفها تاريخ الاتحاد السوفييتى ، ولعل أصدق وصف لمشاعر هذه الجماهير ، هو ما لخصه « بوريس باسترناك » فى هذه الكلمات :

« مما لاشك فيه أن الشعب السوفييتى لم يعتبر ستالين مسئولا عن حمامات الدم ، والمجازر الدموية التى كانت تقام فى الاتحاد السوفييتى فى فترات متقاربة » .

« بل ان هذه الجماهير كانت مقتنعة اقتناعا كاملا بأن ستالين لميكن على علم بما كان يجرى فى الخفاء ، وأنه حينما كان يسمع عن مثل هـذه الاخطاء كان يتولى بنفسه الاقتصاص من المجرم ورد اعتبار المظلومين . فاذا أضفنا الى هذه الصفات تلك البطولات التى حققها ستالين فى أثنـاء نضاله ضد الغزاة النازيين ، وجهوده العظيمة التى جعلت من الاتحـــاد السوفييتى دولة كبرى ، اذن لكان من الطبيعى أن يحتل ستالين فى قلوب الشعب الروسى مكانا يليق به كرجل استطاع أن يخلق من روسيا ، التى كانت بلدا شديد التخلف ، دولة متقدمة زراعيا وصناعيا وعسكريا .

« وبعد .. فهل ندهش بعد ذلك اذا وجدنا زعيمهم الميت يحيا فى قلوبهم كأعظم رجل عرفته روسيا فى تاريخها كله ؟ » .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	الصفحة

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر



العدد ٨١

الثمن ٢٠